

روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
أسطورة البيت
١٢
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

١٢

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة البيت

روايات مصرية للجيب

●

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنف مصري مائة في المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو
الاقتباس

●

بريشة

الأستاذ/إسماعيل دياب

●

إشراف

الأستاذ/ حمدي مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة – المطابع ١٠٠٨ شارع المنطقة
الصناعية بالعباسية – منافذ البيع ١٦،١٠ شارع كامل صدقي الفجالة– ٤ شارع الإسحاقي بمنشية البكري
روكسي مصر الجديدة – القاهرة ت ٢٨٣٥٥٥٤– ٥٩٠٨٤٥٥– ٢٥٨٦١٩٧ فاكس – 202/2596650 ج.م.ع.
4 شارع بدوي / محرم بك – الإسكندرية

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة



أسطورة البيت

بقلم:

د. أحمد خالد توفيق



مقدمة

مرحبًا...

الدكتور (رفعت اسماعيل) أستاذ أمراض الدم المتقاعد وهاوي الأشباح يتحدث إليكم..

أنا الشيخ الوحيد المتهالك الذي يقضي أيامه الأخيرة مسترجعًا ما كان في شبابه من أحداث، والذي قضى ليلته جوار مومياء (دراكيولا)، وصارع (العساس) في الصحراء، وطاردته لعنة الفرعون (أخيروم)..

لقد ولى أحبائي جميعًا.. وها هي ذي صفارة القطار تعلنني أنهم جميعًا قد ركبوا وأن علي أن ألحق بهم إلى عالم آخر..

لكني أتوسل لناظر المحطة - قلبي المتهالك - أن يتركني بضعة أعوام أخرى تكفي كي أفرغ ما بجعبتي من حكايات..

لكنه يقول لي في تململ وهو يجذب كمي:

- لكن حكاياتك هي في النهاية مجرد حكايات.. ليست نظريات علمية ولا قطوف حكمة فتتركها للقادمين من بعدك..

- لكنها مسلية أيها الرجل الطيب.. مسلية!.. وأقسم على هذا...

عندئذ أراه يفكر.. ثم يعقد ذراعيه على صدره ويغمغم:

- إذن احك قصة مسلية أخرى.. ولكن بسرعة.

ويهز إصبعه في وجهي محذرًا:

- قلت لك أن تكون مسلية.. هه؟.. لقد أنذرتك..!

فأهلل.. وأكاد ألثم يديه لولا تصلب عظام ظهري الذي يعوقني عن الانحناء..، وأبدأ - على عجل - في سرد قصة أخرى...

لقد وعدتكم أن أستكمل قصة (هن - تشو - كان)..

لكني لم أحدد متى.. لذا دعونا نصغ لقصة البيت هذه المرة..

البيت.. يعرف كل شيء.. البيت يذكر كل شيء..

البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعوام..

وبوابته الصدئة مفتوحة من أجلنا..

فهل ندخل؟.......

١- دوري يا أيام..

العام ١٩٦٧...

هل كان ذلك قبل أم بعد الحرب؟.. لا أذكر.. لكنني أذكر أنني كنت أحيا حياة باسمة هادئة وقد استقرت أموري أخيرًا..

فلابد - إذن - أن هذه القصة وقعت في الشهور الخمس الأولى من العام...

كنت - كما قلت لكم آنفًا - قد خرجت لتوي من مواجهتي الشنيعة مع حارس مومياء الفرعون (آخيروم).. (هل تذكرون قصة البللورات والرجل الغريب الذي يتعقب (هويدا) والعسل والبصل؟)..

وكان ذلك الشعور العجيب المنعش يتسرب إلى روحي دون أن أدري من أية

ثقوب يتسرب..!

إنه الربيع...!

أي ضير في أن يحب المرء خطيبته بجنون؟..، أن يقضي الساعات يحلم بتعبيرات وجهها وهي تضحك.. تقطب.. تهتم.. تحنو.. تتفلسف..، وأن يسهر الليل محاولًا فهم ما كانت تريد قوله حين أخبرته بكذا.. وكذا..، ثم ذلك الشعور الممض الغريب: محاولة استرجاع ملامحها في ذهنك دون جدوى.. كأنك لا بد أن تراها لتذكر وجهها!..

والشعور الممض الآخر: الشعور بأنها (ستنفد)!... الجنون المسعور الذي يعصف باتزانك حين تدرك أنها في هذه الساعات تضحك وتقول كلامًا كثيرًا ليس لك نصيب

فيه، كأن مخزونها من النضارة والرقة سينتهي بهذه الطريقة قبل أن تتزوجا..

عندئذ تنهض - كالملسوع - إلى الهاتف وتطلب الرقم الحبيب..

وتنتظر في لهفة أن تسمع صوتها يتساءل ناعسًا عما هنالك..

لو كنت تعرف وقتها أغنية (ستيفي واندر): "لقد اتصلت لمجرد أن أقول إنني أحبك!"؛ لو كنت تعرفها وقتها لأنشدتها عبر أسلاك الهاتف.. لكنك لم تكن تعرفها.. ولهذا كنت تختلق أعذارًا على غرار: هل نسيت مفاتيحي عندك؟.. هل زال الصداع عن رأس والدتك؟.. الخ..

كنت تشعر أنك سخيف..

لكنه الشوق المجنون.. والوحدة الأليمة، كالمذءوب الذي يتحول إلى ذئب عندما يكتمل القمر.. تتحول أنت إلى
كائن رومانسي أبله كلما اشتممت رائحة زهر البرتقال تحمله أنسام الربيع..
أصلع الرأس.. نحيل كالبعوضة.. تحش صدره أبخرة التبغ و آلام الذبحة الصدرية.. لكنك... لكنك...
لكنك - ويا خجلي منك يا د. (رفعت) - تحب!

* * *

كنت سعيدًا كطفل نسيه أبواه في مخزن حلوى.. أو أسد وسط قطيع من الحمير

الوحشية.. أو خنزير بري في بركة وحل... أو أية سعادة تبدو قريبة لذهنك..

وفي الكلية أصيب طلبتي وزملائي بالرعب من هذه التغييرات التي طرأت على شخصي الكئيب المتشائم..

ثم كانوا يفكرون هنيهة.. ويضحكون في خبث:

- آها..!.. إنه الحب... إن العجوز (رفعت إسماعيل) يحب...!

فإذا ما أشعلت سيجارة صاحوا في عتاب:

- وهي..؟.. ما رأيها في هذه العادة السمجة؟

و إذا ما أطلقت سبة عابرة.. هتفوا:

- ماذا؟.. ألا تخجل؟... ماذا لو انزلق لسانك أمامها؟!

أما شرود ذهني فدليل جازم على فرط هيامي...

وذات مرة سألني الدكتور (رأفت) زميلي في حيرة:

- تبدل موقفك مائة وثمانين درجة..!

- أي موقف؟

- كنت تتزوج لمجرد أنك لا تجد شيئًا آخر تفعله.. فماذا حدث كي يدعوك للتحمس؟.. ماذا قد جد.

نظرت له في شرود..

ماذا قد جد؟.. ياله من سؤال!..

أنا نفسي لا أعرف السبب.. إننا غير مسئولين عن مرضنا ولا عن عواطفنا.. فجأة نصحو من النوم لنجد أننا نهيم بحب فلان أولا نطيق فلانًا.. فما هو المنطق؟..

ربما هو التعود.. وربما هو شعور بالذنب بسبب ما عرضتها له في قصة الفرعون إياها.. وربما هو الامتزاج المشترك بيننا بعد المعاناة التي عشناها سويا.. وربما هو أنها لم تكن سيئة إلى هذا الحد...

لا أدري.. ومن أنا كي أدري؟...

فقط سيطرت هذه الفتاة على كل مليمتر مربع من عالمي...

والأغرب هنا هو أنني لم أنس (ماجي) قط... لقد ظلت واقفة فوق أعلى ناطحة سحاب من مدينة ذكرياتي، وكانت تتوهج وتتألق كعهدي بها..

كل ما هنالك هو أن (هويدا) بدأت تكتسب المزيد من صفات (ماجي) يومًا بعد يوم!..، وحتى ضحكتها كنت أرى فيها

شبح ضحكة (ماجي) الحنون المشربة بروح الدعابة..

غريب هو ذلك العالم المتشابك الكامن تحت فروة رأسي.. وأبدًا لن أتمكن من فهم ذلك الكائن الذي هو أنا..

❋ ❋ ❋

- ما سر هذه الأرقام الفلكية في فاتورة التليفون؟

- إن مكالماتك الخارجية كثيرة جدًا يا دكتور.. كثيرة جدًا..!.

❋ ❋ ❋

- إن هذه السيارة بالوعة بنزين....

- لابد أن زياراتك للإسكندرية لم تعد أسبوعية.. بل زادت كثيرًا!

❋ ❋ ❋

- إن رسم قلبك لا بأس به يا دكتور رفعت.. إن حالة قلبك لن تعوقك عن الزواج ولكن لا تنس... التدخين هو مسامير نعشك...

- إذن هو ليس نعشًا.. بل دبابة!

❋ ❋ ❋

- ولكن.. متى تغير هذا المنظار الذي يجعلك تبدو كالمعتوهين؟

- أنا أمقت التغيير يا (عزت).. أمقته!

- الزواج هو أكبر تغيير.. ومن يجرؤ عليه يجرؤ على كل شيء آخر..

* * *

- (رفعت)..! إنك تزداد رقة وهذا لا يروق لي!

قالتها (هويدا) وأنا أسير معها في (محطة الرمل) بلا هدف معين.. كانت ترتدي فستانًا أبيض من موضات الستينات الساحرة (كانت كل فتاة تبدو كأنها بطلة فيلم من الأفلام الرومانسية، وكل رجل يبدو كأنه فارس أحلام).. بينما ارتديت أنا قميصا ذا أكمام طويلة..

قلت لها وأنا أشعل سيجارة أمام نظراتها المتوعدة:

- ماذا تعنين؟.. كنت أظن عصبيتي كذلك لا تناسبك..

- نعم ولكن...

وبللت شفتيها بطرف لسانها.. ثم أردفت في حيرة:

-.. لا أدري...

لكنني كنت أفهم ما تعنيه.. هي لا تملك الفصاحة اللغوية التي تمكنها من أن تقول لي إنها تعودت على توتري وعصبيتي و آرائي الساخرة..، وهذه الرقة المبالغ فيها تجعلها غير مستريحة كأنها مع شخص آخر..

حمقاء هذه الفتاة، لكن حماقتها محببة تلذ للسامعين..، إن الأطفال ليسوا فلاسفة متعمقين لكن كل الفلاسفة يحبون محاورة

الأطفال، لأنهم يستمتعون بكل هذا الطهر و النقاء والبعد عن التعقيد...

قالت (هويدا) وهي تجرع زجاجة المياه الغازية التي ابتعتها لها:

- يبدو أنك لم تجد أشباحًا في الفترة الأخيرة...

- وهل هذا شيء يدعو للشكوى؟...

- و كففت عن الأسفار...

- إنه الإفلاس..!

ابتسمت في غموض وهي ترمق أسراب طالبات المدارس يهرعن للحاق بالترام.. وهمست بعد فترة تردد:

- إنك تعيش حياة طبيعية هذه الأيام.. طبيعية أكثر من اللازم.. وهأنتذا رجل كالآخرين تذهب لـ (دمياط)

بحثًا عن الأثاث.. وتتشاجر مع السباكين.. و... و...

- لطالما تمنيت أن أصير كالآخرين...

ضحكت في خجل وناولتني زجاجة المياه الغازية لأعيدها للبائع.. وهتفت:

- أعنى.. يخيل لي أن هذا هو نوع من الهدوء الذي يسبق العاصفة.. أعتقد - وأرجو أن يخيب ظني - أنك مقبل على مصيبة..!

- فأل الله ولا فألك!..

- سامحني.. لكني واثقة من ذلك.. إن هذا الكابوس...

- كابوس؟!

- نعم.. كابوس أراه في كل ليلة...

ها هي ذي تلك الحمقاء تحسب - كأكثر الناس - أي كابوس يزورها بسبب أكلها الثوم في العشاء؛ تحسبه رؤيا صادقة شفافة قادرة على التنبؤ.. وماذا رأيت يا (هويدا) هانم بخصوصي في هذا الكابوس المزعوم..؟

- رأيتك ممزقًا إلى أشلاء..!.

- لا بأس.. لقد رأيت نفسي في كوابيس أسوأ...

- وكانت الذئاب تنهش جثتك...!

- هذا هو التجديد الحق..!

اتسعت عيناها رعبًا ووضعت كفها على ساعدي.. وفي توسل همست:

- اسخر مني كما تشاء ولكن خذ الحذر.. أرجوك...

كدت أشكرها على لطفها لولا أنها أردفت وهي تدفعني للسير:

- ماذا سيقول الناس عنى إذا ما لاقى خطيبي الثاني حتفه؟.. لا أريد أن يتهمني الناس بالنحس!..

....

لم أرد عليها لأنني كنت أرمق في شرود فتاة صغيرة تقف في أحد مداخل البنايات.. كانت ترتدي قميص نوم أبيض طويلًا وشعرها الأسود ينساب على كتفيها...

ذكرني منظرها بشيء ما لا أذكر ما هو بالضبط...

❋ ❋ ❋

٢ - الماضي يصحو..

أنهيت جولتي في العنابر مع تلميذي ممتقع الوجه أحمر الأذنين - نسيت اسمه للأسف - الذي يحاول أن يداري أغلاطه قدر الإمكان، لكني كنت أعرف جيدًا مواضع هذه الأغلاط لأنني كنت أرتكبها في سنه..!

بالطبع لم يفحص براز مريضة فقر الدم بحثًا عن دم مهضوم.. ناسيًا - أو متناسيًا - أن سبب فقر الدم قد يكون نزفًا بالقناة الهضمية..، وبالطبع لم يفحص نخاع الطفل المصاب بنزف الجلد ناسيًا - أو متناسيًا - أن سرطان الدم احتمال وارد...

كانت أذنا الفتى على وشك الانفجار من الدماء المحتشدة فيهما حين انتهى لومي له.. وأنهيت جولتي عائدًا لمكتبي...

وجلست أرشف القهوة وأتصفح الرسائل التي وصلتني...

وكانت - كالعادة - رسائل من أشخاص يطلبون مالًا.. أو يتوعدونني بخراب بيتي.. أو من شركات أدوية تعتذر عن عدم قدرتها على تحقيق شيء طلبته منها ونسيت كنهه تمامًا... ثمة خطاب من (جوستاف نيكولسكو) الصحفي الروماني يتحدث عن المذءوبين ويقول إن هناك قرى أخرى يبدو أنها تعاني منهم حقًا، وخطاب من (هاري شلدون) يذكرني برحلة (جامايكا) الكريهة.. ويدعوني إلى

زيارة (تاهيتي) لنعرف المزيد من أسرار الـ (فودو)...

لقد مات الماضي يا رفاق.. ألن تعوا ذلك أبدًا...

كان هناك خطاب أخير لم أدر من هو مرسله.. لكن خاتم المظروف كان من (المنصورة).. (المنصورة) أول حب في حياتي..

بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق منسق.. كأنه خط امرأة أو خط رجل يملك أصابع امرأة....



بيد مرتجفة فتحت المظروف فوجدت هذه السطور مكتوبة بخط أنيق منسّق ..

الأخ العزيز د. (رفعت):
تحية طيبة.. وبعد...
أسعدني كثيرًا أن أقرأ سطورًا عنك في إحدى المجلات الأجنبية التي يملكها زوجي. وقد تعرفت الصورة فورًا. وقد تذكرت الماضي وحياتك هنا في (المنصورة) مع خالك رحمه الله.
وكنتم خير (جيرانًا) لنا (هكذا في الخطاب) ولم (نرى) منكم إلا كل خير. هناك مشكلة في حياتنا يا د. (رفعت) أعتقد أنها تمسّك بشكل أو بآخر وأرجو أن تلبي دعوة زوجي (محمد أيوب) وهو مهندس معماري للحضور إلى (المنصورة) للقائنا ومعرفة المشكلة.

أما لماذا لم (نأتي) نحن فلأننا نعرف أنك غير متزوج وخفيف الحركة، ثم أن المشكلة عندنا هنا وليست عندك.

سلامي للأخوة (عماد) و (مدحت) و (عبير) إذا كنت تراهم. وعلى فكرة عنواني سهل جدًا وهو (.......) لكن اتصل بنا بالتليفون قبل أن تأتي حتى نعد لك أكلة طيبة تعوض عظامك التي جفت من (طبيخ) العزاب. بالمناسبة رقم تليفوني هو (......).

وشكرًا جزيلًا..

أختك.. إلهام السويفي

أغلقت المظروف على الخطاب وشرعت شارد الذهن أتأمل (تنوة) القهوة في الفنجان...

(إلهام السويفي)!.. يالها من ذكريات..!.. صحيح أن الأسلوب ركيك ومليء بالأخطاء النحوية.. ولكن هل تتوقع من (إلهام) أن تعرف أن المضاف إليه يجر ولا ينصب.. وأن تعرف أن الفعل المضارع الناقص يجزم بحذف حرف العلة.. بل - والأدهى - أن كلمة (طبيخ) لا تناسب الفصحى؟!

غريب هذا...!

كان هذا الجزء من ذاكرتي قد مات تمامًا.. وها هي ذي تذكرني بنفسها و (بالشلة) إياها.. و(عماد) و (مدحت).. إلخ..، أولئك الذين لو شيعت جنازاتهم لما اختلف الأمر كثيرًا.. فالحقيقة المروعة هي أنني لم أر أكثرهم ولم أسمع اسم أكثرهم

من ثلاثين سنة تقريبًا..!.. تخيل أنت أن رجلًا يصافحك في حماس مؤكدًا أنه الطبيب الذي أشرف على ولادتك!.. فهل ستذكر وجهه؟.. هل ستعرفه؟.. بالطبع لا...

كان موقفي ساعتئذ قريبًا من هذا...

*** * * ***

(المنصورة) حبي الأول...

لقد ولدت في (الشرقية) لكني عشت أجمل سني حياتي في (المنصورة).. ولهذا لم أزل أحسب نفسي في عداد أبنائها...

إن وطنك هو المكان الذي ارتديت فيه أول سروال طويل في حياتك.. ولعبت أول مباراة كرة قدم.. وسمعت أول قصيدة..

وكتبت أول خطاب حب.. وتلقيت أول (علقة) من معلمك أو خصومك في المدرسة.. وطنك هو المكان الذي ذهبت فيه للمسجد أول مرة وحدك.. وخلعت حذاءك متحديًا صديقك أن يقف جوارك لتريا أيكما أطول قامة..، ووطنك هو أول مكان تمرغت على عشبه في صراع دام مع صديق لدود من أجل فتاة لا تعرف شيئًا عن كليكما..!

لقد كان وطني هو (المنصورة) وسيظل كذلك.. مشاهد عدة أسترجعها.. أبي المتوفي.. نحيب أمي وعبارة واحدة ترددها وهي تحرك رأسها يمينًا ويسارًا:

- كيف أربيهم!.. كيف؟

ثم خالي (عبد الرحمن) يعانقها ويعانقني ويعانق شقيقتي (رئيفة) وأخي (رضا) والدمع في عينيه، ويومها عرفت أن مصائرنا تحددت.. (رضا) أكبرنا سنًا سيظل في (كفر بدر) ليرعى الأسرة ويفلح الأرض، وكذا (رئيفة) لأنها فتاة ويجب أن تظل جوار أمها.. ثم إن البيت في القرية لا يستقيم دون امرأة حتى ولو كانت طفلة..، أما عني أنا..

- اسمعي كلامي يا (فاطمة).. (رفعت) ذكي ويمكنه أن يفلح في الدراسة.. ربما صار طبيبًا أو مهندسًا أو ضابطًا.. وحرام أن تضيعي عليه فرصة كهذه لمجرد أن يظل في حضنك..

- ولكننا لا نملك...

- سيعود معي إلى (المنصورة) ليعيش في داري مع (عماد) و (مدحت) و (عبير) أبنائي.. وكلهم في مثل سنه.. ثم إنني خاله.. والخال والد يا (فاطمة).. لا تنسي هذا...

كان الاختيار صعبًا لكنه محتوم..، ولم تلبث أمي أن استسلمت لرغبة خالي.. وكان الفراق مؤثرًا إلا أنني - كديدن الأطفال - لم أكد أبتعد عشرين مترًا عن داري حتى جفت الدموع في مقلتي.. ونسيت كل شيء عن (كفر بدر)...

كانت (المنصورة) فاتنة منذ اللحظة الأولى ولم أستطع أن أخفى انبهاري.. لا تنس أنها أول ما رأيت في حياتي من مدن..

ودار خالي الأنيقة - أو ربما هو ما رأيته - والأصدقاء الجدد الذين دخلوا عالمي ودخلت عالمهم...

ولسنوات عدة - وحتى التحقت بالكلية - عشت في وطني الجديد مكتفيًا بزيارات قصيرة لـ (كفر بدر) مرة أو مرتين في الشهر..

هي سنوات هادئة تلك التي عشتها هناك في (المنصورة).... فقط بعض المغامرات الصغيرة كالفرار من المدرسة إلى السينما، وتسلق سور فيلا، وصيد الأسماك النيلية في إحدى العزب القريبة...

. كنا أطفالًا نسكن في شارع صغير ضيق تزينه الأشجار العجوز على الجانبين وكانت الشمس تزخرف أرض هذا الشارع

بالظلال طيلة ساعات النهار وطيلة فصول العام.. بينما نحن نزخرف جدرانه بأسمائنا ورسوم ساذجة بالطبشور ونتائج مباريات كرة القدم المحلية بنفس المنطق والفخر اللذين جعلا (رمسيس الثاني) يزخرف جدران المعابد بانتصاراته..

كانت الحياة تمضي.. وكنا سعداء...

والآن دعني أعرفك شلتنا الصغيرة...

أما هذا الصغير النحيل العصبي بمنظاره السميك الذي كسر إطاره وتم لحامه بالحرارة فهو أنا.. وكما تلاحظون لم أتغير كثيرًا سوى زحف الجدب على مقدمة رأسي...

أما هذان الطفلان الجميلان فهما (مدحت) و (عماد) ابنا خالي.. وهما - كما لابد أنك

لاحظت - توءمان..
الفتاة الأولى ذات الضفيرة و السن الناقصة هي (عبير) ابنة خالي، وهي شيطانة صغيرة خبيثة لا تكف عن الضوضاء..
أما الفتاة الثانية فهي (إلهام) صاحبة الخطاب.. وإذا ظننت للحظة أنها ولد بسبب شعرها القصير وارتدائها البنطال فاعلم أن الكثيرين ارتكبوا الخطأ ذاته.. ثم كانوا يسمعون صوتها الرقيق فيدركون أنها طفلة تصر أمها على محاكاة موضة الـ (آلاجارسون) التي يترجمها (طه حسين) بـ (المسترجلة) ويترجمها (العقاد) بـ (الغلامة)..!

كنا نلتقي في الشارع بعد سويعات المدرسة.. أو في أيام الصيف فنبدأ في لعب كرة القدم أو المساكة أو أية لعبة أخرى.. ثم نمل كل شيء فننفصل أيامًا نعود بعدها لذات الألعاب...

وكانت طبقتنا واحدة هي طبقة أبناء الموظفين (وهي طبقة محترمة في الثلاثينات) لهذا كان انسجامنا تامًا...

وكنا نتشاجر على الفوز برضا سيدة الأقمار السبع وملكة (سبأ) الشهيرة باسم (إلهام) إذا ما كنت تفهم صراع الأطفال المضحك من أجل رضا فتاة..

كان (عماد) يقلص وجهه ويأتي بأصوات غريبة من حلقه محاولًا إبهارها.. وكان

(مدحت) يثب على ذراعيه ويمشي مقلوبًا.. وكنت أنا أرسم وجهها..
الخلاصة أن كلًا منا حاول أن يريها أفضل ما فيه من صفات.. لكنها - وهذا طبيعي - لم تر في التوءمين سوى نسخة مكررة لبعضهما.. ولا معنى لأن تهتم بأحدهما دون الآخر، أما أنا فكنت الوحيد الذي لا شبيه له.. لهذا لم تخف ميلها نحوي خاصة وأنا أقربهم سنًا لها.. وموضوع وفاة أبي قد جعلني - في رأيها - كائنًا أسطوريًا عركته الحياة وذاق من التجارب ما لم يذقه هؤلاء المترفون...!
هكذا مرت الأيام...
ثم.... لا أذكر أحداثًا معينة ذات بال..

متى انفصلت هذه المجموعة؟.. لا أدري.. لكن هناك لحظة ما كان محتمًا أن تأتي.. ولم تعد الفتاتان معنا في نفس المدرسة..، ولم نعد نرى (إلهام) لكننا كنا إذا قابلناها مصادفة نجدها قد صارت فتاة أخرى.. حتى شعرها صار طويلًا وكفت عن ارتداء البنطال، وكانت تطرق بعينيها للأرض ويحمر وجهها معلنة أنها لا ترغب في تبادل الحديث في الشارع.. أو - أحيانًا - تهز رأسها بتحية عابرة فاترة لا ود فيها..

حتى في دار خالي صار هناك نوع من الحصار حول (عبير).. ولم أعد قادرًا على رؤيتها في كل وقت ولا دخول غرفتها كما اعتدت في طفولتي.. وصار أخواها أكثر تحفظًا في الكلام عنها.

ونظرت للمرأة لأرى ما تبدل...

فوجدت (رفعت) آخر ينظر لي.. عيناه لامعتان.. والزغب يملأ شفته العليا حتى خيل لي أنه غبار يمكن ازالته بأصبعي..

لكنه لم يزل...

لقد كبرت..!

كدت أصرخ وأبكي.. إن كل طفل يسره أن يصير رجلًا.. لكني مختلف عن الآخرين، إنني مستعد تمامًا للتخلي عن هذا الشرف مقابل أن نعود لبراءة ونقاء الماضي.. ليوم واحد فقط...

فجأة امتلأت حياتي بالجدران... وأدركت - في رعب - أن حياة الرجولة ستكون قاسية حقًا..

* * *

تبًا للذكريات..!

بعد دقائق فطنت إلى أنني كنت أكلم نفسي وأردد عبارات قلتها في طفولتي.. وأضحك وأقطب استجابة لأفعال أشخاص لا وجود لهم!...

لقد عثرت علي (إلهام) بعد كل هذه الأعوام.. وبعد أن بدأت الجدران المقامة بيننا تبلى وتتآكل، وحين هوى الجدار الأول وجدت هي تلك المجلة اللعينة وقررت أن تكتب لي...

تلك المجلة التي وقعت في أيدي (تابيثا) وجعلتها تلعب معي لعبة (ميدوسا) ود. (رمزي) وجعلته يدعوني لتشريح مومياء الفرعون..

لو كنت ثريًا لاشتريت كل نسخ هذه المجلة وأحرقتها.. فقد قضيت وطري من الفخر بصورتي القبيحة المنشورة بها، ولم يعد هناك سوى دفع فواتير الشهرة..

ولكن....

لماذا لا ألبي دعوتها؟.. إن (المنصورة) هي قطعة من روحي، ولا بأس من أن يزور المرء الموضع الذي فارق فيه روحه قبل أن يتزوج ويضيع للأبد..

كنت قد وصلت لداري...

ودون أن أنزع ثيابي مددت إصبعي لقرص الهاتف.. وطلبت رقمًا ما...

* * *

٣- أسطورة البيت..

كنت قلقًا في أثناء ذهابي للموعد المنشود..

فقد تركت (المنصورة) منذ أعوام عديدة، بعد التحاقي بكلية الطب في (القاهرة) ووفاة خالي... وبعد انتهاء واجب العزاء رحلت ولم أعد بعدها أبدًا..، ذبت تمامًا في حياة القاهرة حتى أنني لم أحضر زفاف (عبير) ولا زفاف أخويها برغم أنني تلقيت الدعوة.. وبرغم أن (مدحت) زارني في داري أكثر من مرة..

لقد مزق رحيل خالي حبلًا متينًا كان يربط بيننا.. كأننا سفن تمزقت حبال

مرساتها لتضيع في البحر الواسع ولا تعود للميناء أبدًا..

فقط عرفت أن (إلهام) تزوجت وتعيش في مكان آخر بالمنصورة، وأن أولاد خالي لم يروها منذ أعوام طويلة، عرفت كذلك أن كل شيء قد تبدل في المدينة عما كان في الثلاثينات السعيدة..

لهذا.. شعرت بالرهبة و القلق..

خشية ألا أعرف المكان.. وخشية ألا يعرفني المكان..

* * *

ودخلت مدخل البناية الأنيقة الظليل صاعدًا إلى الطابق الثاني لأقرع الجرس وأتنحنح..

هو ذا الباب يفتح عن وجه وقور أشيب الشعر كث الشارب، وخلفه لمحت امرأة بدينة بشعة المنظر تبتسم لي في مودة غير عادية..

- أنا.......

فتعالى صوتها في مرح من خلف كتف زوجها:

- أنت لم تتغير يا دكتور (رفعت)!!

رحب بي الرجل في مودة - وبيد ثابتة مليئة بالثقة - وقال باعتداد:

- مهندس (محمد أيوب).. مرحبًا بك...

ثم دعاني للدخول..

كان الأثاث أنيقًا والأرض مكسوة بسجاد فاخر.. وثمة رائحة عطرة في الجو توحي لي بأنهم قاموا برش مستحضر ما تحسبًا

لقدومي..، والواقع أنني فهمت أنهم استعدوا لزيارتي إلى حد كبير.. فالأناقة والنظافة العامة توحيان بأنهما غير معتادتين.. ومن المستحيل أن يظل (الباركيه) لامعًا إلى الأبد في بيت تعيش به أسرة..

حتى (إلهام) بدا واضحًا أنها تأنقت قدر استطاعتها وأجبرت زوجها على ارتداء بذلة أنيقة، وبرغم هذا لم أستطع أن أخفي ما شعرت به من غم إزاء ما طرأ على جمالها القديم من تبدل.. هل حقًا كبرنا إلى هذا الحد المفزع؟.. إذن كيف أبدو أنا.. أنا الذي لم يتهمه أحد بالجمال..؟

أنا أعرف أن الزمن قاس، لكني لم أتصور مدى هذه القسوة...

وجلسنا نرشف الشاي وآكل قطع الجاتوه مرغمًا على حين أخذت تسألني عن أحوالي وعن السر في عدم زواجي (ذلك الموضوع المحبب لدى الناس جميعًا ولا يبدو أن عندهم غيره) ثم عن ميعاد زواجي بعد أن لمحت خاتم الخطبة في خنصري الأيمن..

دخل الغرفة طفلان مزعجان يتدلى المخاط من أنفيهما قالت لي إنهما (مجدي) و (محمود) إبناها.. تشرفنا.. هل أنتما مجيدان في الدراسة؟.. إن (مجدي) يحفظ الأرقام من واحد إلى عشرة..

تراجعت للوراء راسمًا أفظع علامات الدهشة على وجهي.. وتساءلت غير مصدق:

- هل تقولين هذا لتثير ذهولي فقط؟
- بل هو الواقع...

ونفش الطفل السخيف صدره وشرع يتلو الأرقام حتى عشرة، ثم أخذ يدور بوجهه يمينًا ويسارًا في فخر مبتذل.. الله!.. أنت شاطر يا أخ (مجدي).. ليس هذا فحسب.. فإن (محمود) يجيد غناء أغاني (عبد الحليم حافظ)..

ألن ينتهي هذا الهراء؟!..

وهنا دخلت خادمة صغيرة مصابة بفقر الدم تدعونا إلى مائدة الطعام فنهضنا، وقادني الزوج إلى الحمام لأغسل يدي ووجهي، ثم جلست على المائدة المرعبة المزدانة باللحوم وعشرات الأنواع من

الخضر والسلاطة و.. و.. قلت لها في حرج:

- يبدو أنك توقعت أن الجيش البريطاني آت للغداء معي!

صاحت في مرح وهي تصب لي الحساء:

- بل هكذا أكلنا كل يوم..!

يا سلام!.. تريد أن تقنعني أن هناك بيتًا قادرًا على إعداد هذا الطعام يوميًا فضلًا عن طهوه..!.. إنه التفاخر الأخرق الذي لا مبرر له..

قالت لي وهي تأكل في نهم:

- هل تذكر بيت (الخضراوي)؟.

توقفت عن المضغ ونظرت نحوها في حيرة....

* * *

- ما هذا البيت يا (عماد)؟
- إنه بيت (الخضراوي) يا (رفعت)؟
- لاحظت أنكم تبتعدون عنه في أثناء اللعب...
- هكذا نصحنا بابا...

كان الإغراء قويًا..

فالبيت - الشبيه بفيلا من طابقين - كان يقف على حافة النيل بينما يتكاثف ضباب الفجر حوله فيجعله أشبه بوحش أسطوري ينتظر..، وفي أعماقي تحرك شعور شهي.. الرغبة في المجهول و الخوف منه...

- فلندخل...

صاح الأخوان في صوت واحد:
- سيعرف بابا ويعاقبنا...
- إذن فلنقترب منه أكثر...

لم أكن أجسر على الاقتراب وحدي وكنت محتاجًا للصحبة..، وفي تؤدة - كخمس قطط صغيرة تتسل فارة - زحفنا نحو البيت، أذكر هواء الفجر النادي المشبع بالمازوت (ولا أدري مصدره).. وصوت الأعشاب تتهشم تحت أقدامنا.. والمنزل يكبر.. ويكبر.. ويكبر...

لم يكن ثمة مخلوق في المنطقة سوانا، وكان السور الحديدي الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب الخضراء و أوراق نباتات شيطانية تبرز منه، ومن خلفه لمحنا غابة - أعنى حديقة - متشابكة

الغصون والأوراق، و أشجارًا لا أدري اسمها يلتف - كأنها تتلوى ألمًا - حول بعضها البعض...

كانت يد (إلهام) الصغيرة ترتجف في كفي.. وكان كفى الآخر يرتجف في كف (عماد) الذي كان كفه.... إلى آخر الدائرة..، وفي أعماقنا دوى صوت يهيب بنا مرارًا أن نبتعد.. يجب أن نبتعد.... لقد مضينا إلى أبعد مما ينبغي وحان الوقت كي نهرب قبل أن نرى ما نخشاه...

وهنا حدث شيء غريب...

* * *



وكان السور الحديدى الصدئ المحيط بالبيت مغطى بالطحالب
الخضراء وأوراق نباتات شيطانية تبرز منه ..

- لكنك لا تأكل يا د. (رفعت)!
دوى صوت الزوج يهيب بي ألا أغرق في شرود الذهن..
رفعت الملعقة إلى فمي وقلت مواصلًا المضغ:
- بيت (الخضراوي)؟.. نعم.. أذكره طبعًا...
قالت وهي تصفع أحد الطفلين كي يكف عن سكب الحساء على المفرش وتلطم الآخر كي يكف عن إعادة ما في فمه إلى الطبق:
- أنت تعرف أننا لم نعد إليه قط منذ ذلك اليوم..
- هم م م م!
-.. حسن.. لقد عادت (شيراز) من جديد!

سقط كوب الماء من يدي على مفرش المائدة..، وشرعت في ذهول أرمق بقعة الماء تتسع تدريجيًا..

* * *

كانت البوابة الصدئة مواربة غير مغلقة..

ومن وراء فتحتها كانت واقفة.. وحيدة.. رقيقة.. نحيلة كزهرة.. فتاة صغيرة في مثل سننا ترتدي قميص نوم أبيض طويلًا يصل لقدميها.. وقد عقدت شريط العنق على شكل (فيونكة) صغيرة..، كان شعرها أسود فاحمًا كالليل ينساب حتى خصرها.. أما عيناها فكانتا غريبتين.. لم أكن قد رأيت عينين زرقاوين في حياتي، ولقد أصابني الذهول وأنا أرى فتاة تحمل في عينيها

لجتين من مياه البحر شديدة الزرقة والصفاء والشفافية.. حتى أنني ساءلت نفسي:

- تبدو كالعمياء.. كيف ترى بهاتين المقلتين الشفافتين؟

وقفنا - كمن أصابنا مس كهربي - على البوابة عاجزين عن التفكير.. أما هي فقد فتحت البوابة أكثر.. وعلى وجهها ارتسمت أعذب ابتسامة رأيناها في حياتنا.. ثم سمعنا أجراس الملائكة تقول:

- تعالوا.. لا تخافوا.. هذا هو بيتي..!

كان (مدحت) أول من استعاد القدرة على النطق.. فقال متلعثمًا:

- هل.. هل أنت بنت الخضراوي...؟

لم ترد.. بل أشارت لنا لندخل..، ومدت يدها البلورية تعانق (عبير) وتلثمها على خدها:

- ما أجملك!.. ما اسمك يا حلوة؟.

- (عبـ..) (عبير)...

- إسم جميل.. وأنا (شيراز).. صديقتكم...

- اسمك غريب لكنه جميل يا (شيراز)...

ثم إن (شيراز) عانقت (إلهام) وهمست في رقة:

- لماذا تلبسين كالأولاد؟.. لكن - هل تريدين رأيي؟... - أعتقد أنك هكذا أجمل..

ثم صافحتني.. لن أنسى هذه اليد الباردة الشفافة البلورية ما حييت.. تعمدت عدم الضغط حتى لا أسمع صوت الـ (كراشي) الذي أخشاه!..

وفي تهيب دخلنا الحديقة معها نجرجر أقدامنا..

كانت تتقدمنا عبر الاشجار متجهة إلى البيت..، وقرعت الباب عدة مرات بمطرقة على شكل قبضة يد. فانفتح الباب عن خادم نوبي.. ثم إنها دخلت ونحن خلفها إلى مدخل أنيق تحفه المرايا والتحف...

الغريب أن نسيج العنكبوت كان يغلف كل شيء..

فهل هم لا يملكون ما يزيلون به هذا النسيج؟

❋ ❋ ❋

- آسف جدًا.. لكني لا أفهم كيف عادت؟

قالت (إلهام) وهي تضع منشفة على مفرش المائدة فوق البلل الذي حدث:

- أمس مررت بالصدفة - في الصباح الباكر - جوار البيت فوجدتها واقفة جوار البوابة.. وكانت تضحك لي!

- غريب هذا...!

- لماذا لا تأكل يا د. (رفعت)؟

- لقد شبعت تمامًا.. ولكن.. هل حدثتها؟

- بالطبع لا.. لم أجرؤ على ذلك...

- ولمه؟.. بعد هذه السنوات.. هل تزوجت؟

- مستحيل أن تكون قد تزوجت يا د. (رفعت)..

سألتها وأنا أشعل سيجارة:

- ولماذا؟.. لابد أنها قد صارت عروسًا فاتنة...

قالت في برود وهي تصب بعض الخضر في طبق طفلها:

- إن (شيراز) يا د. (رفعت) - بعد كل هذه الأعوام - لم تزل طفلة!!

❋ ❋ ❋

٤ - الفتاة التي لم تكبر..

- ماذا؟.. ماذا تعنين بالضبط؟
- أعني ما سمعته.. الفتاة ظلت طفلة كما عرفناها..
نفثت دخان السيجارة وتأملت التبغ في شرود.. ثم
سألت:
- تعنين أنها مصابة بتقزم هرموني؟.. خلل في الغدد مثلًا؟..
ضحكت في سخرية وهمست:
- ألا تنسى أنك طبيب أبدًا؟.. أنت تذكر تلك الأيام وتلك الفتاة.. وتعرف مثلما أعرف أن الأمر أخطر من هذا...

نظرت إلى عيني زوجها ثم إلى عيني.. وهمست:
- أعني أن هذه الفتاة لم تكن طبيعية...

* * *

نحن أيضا شعرنا بذلك ونحن نجتاز مع الفتاة صالة دارها...
العنكبوت في كل مكان وكذلك جو العظمة الغابرة.. وكانت هناك امرأة تقف جوار مائدة طعام عملاقة.. امرأة شعرها بلون الجليد.. ولها وجه رقيق مليء بالتجاعيد (ليس من ديدن الأطفال ملاحظة الثياب لكني أعتقد أن ثيابها كانت فاخرة).. وما إن لمحتنا حتى هش وجهها وبش وتقدمت نحونا:

- أصدقاء (شيراز؟).. مرحبًا بكم.. إن أصدقاء ابنتي هم أبنائي.. ومشكلتي هي أنها لا تجد أصدقاء من سنها.. ما أسماؤكم يا أحبابي؟

- (رفعت)..

- (عبير)..

- (إلهام)...

إلخ.. ثم إنها أجلستنا على المائدة وقدمت لنا (جيلي) أزرق اللون شهي المذاق إلى حد غير عادي، وشرعت تسألنا عن أهلنا ومدارسنا وأحوالنا.. ثم سألتني:

- لماذا لم أركم من قبل..؟

تنحنحت.. وبمرح قلت:

- الواقع أننا....

ابتسمت في رقة وربتت على كتفي:

- لا تقل.. دعني أخمن.. أعتقد أن أهلكم يحرمون عليكم المرور هنا..

- الواقع...

-.. فليكن..!.. لا داعي أن تخبروهم بشيء.. ولكن كل ما أرجوه هو أن تعودوا إلي من وقت لآخر..

وقدمت لي طبقًا مليئًا بالشُليك (الفراولة)..

* * *

أنهيت التهام الشُليك الذي قدمته لي (إلهام) وقلت:

- الواقع أن كل شيء كان غريبًا هناك.. الـ (جيلي) الأزرق والشليك في (نوفمبر) ورائحة الجو...

- بالذات رائحة الجو...

ثم نظرت إلى إبنها.. وهتفت:
- (مجدي).. إذا كنت قد فرغت من طعامك فلتعد لحجرتك..

* * *

- نعم.. فرغنا من طعامنا ويجب أن نعود...
قلناها في حرج للأم التي قادتنا إلى الباب الخارجي ومعها طفلتها الحسناء..
وفتحت لنا البوابة فدوى ذلك الصرير البارد..
- مع السلامة يا أحباب..
- مع السلامة..
وخرجنا لا نلوي على شيء.. لكننا كنا محبوسي الأنفاس مبهورين بهذا العالم

الغامض الذي لم نر مثله من قبل..
لم نثرثر ولم نتبادل الآراء لكننا عرفنا جميعًا أننا سنعود وأننا لن نحدث الكبار عن شيء.. أما (شيراز) فظل مذاقها في ثغورنا وأرواحنا كحبة (شُليك) حمراء باردة تبلورت حبيبات السكر على مسامها..
وقبل أن نبتعد عن البيت صاحت (عبير) في حيرة وهي تشير إليه:
- هل لاحظتم شيئًا غريبًا؟...
- ماذا تعنين؟..
- إنها ساعات النهار الأولى والطيور تتزاحم فوق الأشجار.. لكنني لا أرى طائرًا واحدًا فوق أغصان هذا البيت!

❋ ❋ ❋

- هل تذكر فرار الطيور بعيدًا عن حديقتهم؟

- والقطط الضالة...

قال الزوج وهو يضع الأطباق بعضها فوق البعض:

- الواقع أنكم كنتم شديدي البراءة.. لقد فعلت الطبيعة كل ما تستطيع كي تحذركم من أن ما يجري في هذا البيت مريب.. لكنكم لم تفهموا...

❋ ❋ ❋

نعم لم نفهم...

وفي الأيام التالية صرنا نذهب للبيت.. أحيانًا في النهار وأحيانًا بعد الغروب، وكانت (شيراز) دائمًا هناك واقفة خلف البوابة الصدئة..

وكعادتها تضحك وتلثم الفتاتين وتقودنا للداخل.. ويبدأ الحلم... ألعاب لا حصر لها.. المساكة.. لعبة الأدغال.. صيد السحالي الصغيرة (لم يكن يلعبها سوى الصبيان بطبيعة الحال)... لعبة الكرة.. تسلق الأشجار.. وبعد ساعتين كنا نفارق البيت غارقين في العرق تختلج السعادة في أعماقنا، نتمنى أن نموت فلا نبعث إلا حين يأتي موعد الغد..

* * *

- (شيراز).. أنا أحبك..

- (رفعت).. كف عن هذا وإلا أخبرت ماما...

- سأموت إذا ما طلبت أنت مني ذلك!

- إذن.. مُت!

فأمسك بقلبي وأتلوى ألمًا ثم أسقط على الأرض فوق الأغصان المهشمة والأوراق الجافة.. صوت التهشم..

- هأنذا قد مت كما أردت.. والآن هل تحبينني؟!

فتركل جسدي الممدد على الأرض في دلال.. وتصيح:

- كاذب رعديد!.. وماذا عن (إلهام)؟

أصيح وأنا أغمض عيني من جراء أشعة الشمس:

- لم تعد تعنيني قط...
- سأخبرها..!
عندئذ أنسى دور العاشق اللاتيني الذي ألعبه وأنهض ملوحًا بقبضتي..
- حاولي أن تقولي لها شيئًا وسأكسر رقبتك!
لكنها تكون قد تركتني وانطلقت تجري بين الأشجار واضعة كفيها على فيها كمكبر الصوت.. وهي تصيح:
- اسمعي يا (إلهام)!.. (رفعت) يقول...
- اخرسي يا مجنونة!..
وأكون قد لحقت بها و أمسكت بـ.. بمرفقها وجذبته بقوة فيختل توازنها وتسقط على رأسها سقطة قوية كاد فؤادي ينخلع لها... أدركت دون جهد أنها - ولابد -

جرحت جرحًا بليغًا وسيكون موقفي عسيرًا أمام أهلها.. وأمام أهلي.. وأمامه..!

ساعدتها على النهوض و أنا أعتذر بعنف.

- سامحيني!.. كنت أمزح..!

المقت والألم في لجة العينين الزرقاوين كأنما ألقي فيهما حجر..، تمسك بجبهتها ولا ترد.. لكني أرى الجرح بوضوح تام يشق جلد الجبين البلوري.. والغريب هنا أنني لم أر قطرة دم واحدة!.. ولا قطرة.. كأنما الجرح في قطعة من الشمع..

- إنه لجرح كبير.. يجب أن تذهبي للمستشفى حيث...

- لا...!



لكني أرى الجرح بوضوح تام يشق جلد الجبين البلوري ..
والغريب هنا أنني لم أر قطرة دم واحدة ؟ ..

قالتها في حزم وصرامة.. ثم أسدلت بعض خصلات الليل الأسود فوق الجرح ونهضت في كبرياء وأنا وراءها خزيان..

كان الحرج يمنعني من توجيه الأسئلة.. أسئلة لا بد منها عن الجرح الذي لا ينزف دمًا.. لهذا تناسيت القصة كلها و عدت أحاول اكتساب رضاها..

وتوسلت لها مرارًا ألا تخبر أمها إنني السبب...

- أنت جبان...

- نعم جبان جدًا.. ولكن ليس خوفًا من العقاب بل خوفًا من الحرج...

ضحكت في دلال وهزت شعرها تلقائيًا، قائلة:

- أنت تجيد تبرير عيوبك...!
غريب هذا..!
لم أكن في هذه المرة قادرًا على رؤية الجرح!..، لقد سقطت خصلات الشعر التي تداريه.. وها هو ذا الموضع أمام عيني.. لكني لا أرى الجرح!.. لا أراه وأقسم على ذلك..

❋ ❋ ❋

قالت (إلهام) وهي تصب الشاي:
- أكثر من مرة جرحت الأشواك يدها أمامي ولم أر دمًا..
قلت في دهشة:
- لاحظت ذلك أنت الأخرى؟.. ولم لم تخبرينا؟

- إن الأطفال يرون أشياء كثيرة لكنهم لا يحاولون تفسيرها..

تناولت قدح الشاي منها شاكرًا ووضعته أمامي..

أفضل أن يكون الشاي في كوب لكني لم أجرؤ على طلب ذلك منها.

قال زوجها وهو يتناول قدح الشاي الخاص به:

- تقول (المدام) إنك كنت مدلهًا في حب (شيراز)...

غمغمت (إلهام) وهي ترفع حاجبها الأيسر في تهكم:

- ليس هو فقط.. بل و (سامح) و (عماد) كذلك...

* * *

أية آلام مزقت القلب الصغير - قلب (إلهام) - وهي تفقد عرشها ببطء..!!..

لم تعد ملكة (سبأ) ولا سيدة الأقمار السبع ولم يعد الأولاد الثلاثة يصطرعون من أجلها.. ولم يعد أحد يهتم بمعاونتها على تسلق الأشجار أو عبور الحفر العميقة.. ومنذ شهرين لم يسط أحد على الفيلا المجاورة ليسرق لها وردة حمراء من الحديقة..

لقد احتلت اللعينة (شيراز) كل جوارحنا.. ولم نعد نتقاتل إلا من أجلها.. ولا نمزح إلا من أجلها.. ولا نتحدث إلا عنها..

كل الورد الأحمر وقطع (الكاراميل) ورسومي صارت لها وحدها.. حتى ضرس (عماد) المخلوع المسوس احتفظ به ليريه لها وحدها.. ولم يره أحدنا برغم توسلاتنا..

كان القلب الصغير يطفح بالألم وبالحمم وبالصديد لكنها ظلت صامتة تتظاهر بالمرح.. كانت (إلهام) تتعذب..

ولم تكن قادرة على الحقد على (شيراز) لأنها كانت دونها في كل شيء بثياب الفتيان التي ترتديها وشعرها القصير والسن الناقصة التي تظهر إذا ابتسمت.

القلب الصغير يطفح بالقطران والدخان الأسود...

إلى أن جاء اليوم الذي انفجرت فيه..

كنا نلعب الـ (سيجة) على الأرض.. نحن الثلاثة ضد (شيراز) وكانت (عبير) تراقب الموقف في خبث.. وهنا سمعنا صرخة.. صرخة روح تحترق:

- أنتم جميعًا هنا من أجلها.. لا أحد يريدني.. ولم يعد أحد يعبأ بي!

كذا صرخت (إلهام) وهي تركل الأرض مبعثرة رقعة (السيجة) التي رسمناها بالطبشور... ثم أردفت والدمع يترقرق في عينيها:

- ليكن.. سأعود لداري ولن آتي هنا أبدًا..!

وليس هذا كل شيء..

- وسأخبر كل الناس أنكم تأتون هنا!

وقبل أن نفهم ما حدث كانت قد فرت جارية من الحديقة.. صورة مصغرة للانتقام.. (سالومي) الطفلة دامعة العينين تهرول في الطرقات عازمة على خراب بيتنا..!

* * *

- كنت غيورًا جدًا والحق يقال..
قالت (إلهام) وهي تبتسم في حرج:
- كنت (فتاة) جدًا.. هذا هو كل شيء..
- وجلبت الوبال على رؤوسنا...
- علي وعلى أعدائي!
رشفت جرعة من الشاي وأنا أسمع صوت خالي ينادينا بعد أن فرغ - هو الأخر - من رشف الشاي..

* * *

وقفنا - أنا و (عماد) و(مدحت) و (عبير) - محمري الأذان أمام خالي بانتظار كلمته الأخيرة.. بينما يتبادل وزوجته نظرات ذات معنى..

ثم قال في تودة:

- عرفت من أم (إلهام) أنكم تذهبون إلى بيت (الخضراوي).. ألم أنهكم عن ذلك؟

ساد الصمت البليغ لبضع ثوان...

- كم مرة ذهبتم هناك؟

-..............

- كم مرة؟.. ثلاث مرات... أربعًا... عشرًا؟

-..............

- أكثر من عشر مرات؟!

واحمر وجهه - كعرف الديك - وأوشك على الكلام لولا أن تدخلت زوج خالي:

- لحظة.. ماذا رأيتم هناك؟..

بحرج شديد و ارتباك بدأنا نحكي كل شيء.. (شيراز) والأم والخادم النوبي و غيرة (إلهام).. إلخ.. إلخ...

كان الاهتمام يتزايد على وجه خالي، والرعب ينمو في سحنة زوجته، وثمة نظرة جانبية ذات معنى تبادلاها.. ثم عادا ينظران لنا..

نهض خالي - بعد ما أنهينا القصة - إلى المكتبة فتناول المصحف مذهب الأطراف وعاد به ليضعه على مائدة الطعام.. وسألنا:

- ما هذا؟
- مصحف
- إذن أقسموا عليه إنكم لن تعودوا إلى هذا البيت ما دمت أنا حيًا..
- ولكن...
- لا لكن.. إنكم لا تعرفون ربع ما نعرفه نحن الكبار عن ذلك البيت.. و أقسم بهذا الكتاب الكريم إن من لا يقسم منكم على ما أقول سينال أشنع عقاب...

لم تكن أمامنا حيلة...

أقسمنا.. والدمع في عيوننا.. وثمة شعور عام أننا قد خنّا (شيراز) وخذلناها.. وأدركنا أن حياتنا من دونها ستكون أقسى وأكثر مللًا..

❋ ❋ ❋

إلى هنا و القصة لم تزل عادية...
لكن الأقاويل تتناثر هنا وهناك..
ولا يمكن لسر أن يظل في قبره..
لقد جاء اليوم الذي عرفنا فيه سر قلق خالي وذعر زوجته..
وكانوا محقين..
لقد توفيت زوجة (الخضراوي) وابنته (شيراز) وكل خدم البيت في حادث غامض عام ١٩٢١...
وبالتحديد.. قبل أن ندخل نحن البيت بخمسة عشر عامًا..!

❋ ❋ ❋

٥ - لماذا عادت؟..

قال لي زوج (إلهام):

- ألم تشعروا بالخوف؟

نظرت نحو (إلهام) نظرة ذات معنى.. ثم قلنا في صوت واحد:

- بلى.. شعرنا به بعض الوقت ثم نسينا الأمر برمته..

أردفت أنا في صوت خفيض:

- إن عواطف الأطفال سطحية جدًا ولا تدوم أكثر من دخان التبغ..

- ربما كانت دهشتنا أكبر بمراحل من خوفنا...

ساد الصمت بضع دقائق.. ثم إنني رفعت عينًا متوجسة نحو (إلهام).. حتى هذه

اللحظة لم أفهم كنه المشكلة..، هي مجرد ذكرى مرعبة وانتهت ولم يعد هناك ما يدعو للقلق...

ربما رأت (شيراز).. وربما فوجئت بكونها لم تكبر.. فما الغريب في كل هذا؟.. لقد تأكدنا تمامًا من أن (شيراز) شبح.. شبح من عالم الطفولة لا يراه سوى الأطفال ويخشاه الكبار كثيرًا.. فما هو الجديد إذن..؟..

قالت (إلهام) وهي تنظر للأرض باحثة عن كلمات:

- كانت الأمور مستقرة تمامًا على ما عهدناه.. ثم بدأت أشياء مريبة تحدث..

- مريبة...؟

لعقت شفتيها بلسانها.. وهمست:

- أعتقد أن (شيراز) قد تركت البيت باحثة عنا!

* * *

- (مجدي)!.. تعال واحك لأونكل ما رأيته!

اللعنة!.. هل يجب علي أن أستمع لهذا الوغد الصغير مرة أخرى؟..

ها هو ذا قادم حاملًا كتابًا دراسيًا وقد بدا عليه الفخر الصبياني المبتذل لأهميته..

سأل الأب ابنه وهو يديره نحوي:

- ماذا رأيت الأسبوع الماضي؟

- رأيت الأسد في التليفزيون..

- ليس هذا يا أحمق!.. احك ما رأيته في الشارع المجاور..

و ابتلع الصبي ريقه.. ودمدم:
- رأيت فتاة...
- وكيف كان شكلها؟
رفع الطفل يده إلى رأسه محاكيًا شعر الأنثى:
- جميلة جدًا جدًا.. شعرها أسود.. وعيناها زرقاوان...
نظرت لي (إلهام) نظرة عابرة معناها - حتمًا - (ألا يذكرك هذا الوصف بشيء؟).. ثم طلبت منه أن يستمر..
- كانت ترتدي قميص نوم أبيض.. و...
- و..؟
- طلبت مني أن ألعب معها.. لكني خفت منها..
- ولماذا؟....

اتسعت عيناه رعبًا وأرجع رأسه للوراء:

- لا أدري.. خفت منها..

- نعم.. ولكن لماذا؟

ضيق عينيه في توتر، وقال:

- ربما.. ربما لأنها لم تكن تترك ظلًا على الأرض!!

تبادلت وأبوه نظرة حيري.. لكن (إلهام) لم تتوقف عند هذه النقطة بل واصلت الاستجواب:

- وماذا قالت لك بعدها؟

- طلبت أن أنقل تحياتها لأمي!

عند هذا الحد وثبت (إلهام) في مقعدها وقد بدت على ملامحها أمارات الظفر.. وهتفت:

- هل رأيت؟.. إنها تذكرنا!

قلت في حيرة وأنا أشعل لفافة تبغ:
- من هي؟
- (شيراز) طبعًا.. لا أظنك بهذا الحمق...
حككت رأسي في شرود مغمغمًا:
- الواقع يا (إلهام) أنني لا أجد الأمور بهذا الوضوح.. إن القصة كلها تبدو لي نوعًا من الخلط..
- بل هي واضحة كالشمس..
وضربت الطفل على ردفه ليعود لحجرته.. ثم استطردت:
- بعد كل هذه السنوات لم تزل الفتاة تستشعر الوحدة.. ولم تزل تبحث عن أصدقاء الطفولة،.. أو - على الأقل - تبحث عن أبنائهم...؟!
- ألا ترين في هذا نوعًا من المبالغة؟

نهضت في تؤدة لتضيء المصباح النيون المعلق فوق رؤوسنا.. والضوء الأبيض النظيف يغلف الوجوه وقطع الأثاث.. وهمست:

- د. (رفعت).. يجب أن نبحث عن الآخرين...

- الآخرين؟

- نعم.. أولاد خالك..

- فكرة لا بأس بها.. ولكن لماذا؟

- يجب أن نعرف لماذا عادت (شيراز)؟ وما الذي تبغيه منا؟

قالتها وابتسمت ابتسامة لم أدر مغزاها...

❋ ❋ ❋

قلت لـ (شيراز) وأنا أتأمل مشهد الغروب:

- (شيراز).. أنا أخاف الغروب.. كأنني أرى مصرع الشمس..

التمع الضوء الأرجواني في لجتي عينيها الزرقاوين.. وهمست:

- الشمس لا تموت عند الغروب يا (رفعت).. بل تذهب لتنام في دارها بعيدًا بعيدًا..

كنت أرتجف كالورقة وخصلات شعرها الأسود تلمس أذني:

- (شيراز).. أنا خائف....

- خائف وأنا معك؟!

لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذي ينتابني أحيانًا.. لم أجرؤ أن أخبرها

أنني خائف لأنها معي!

❋ ❋ ❋



لم أستطع أن أصارحها بالشعور الغريب الذى ينتابنى أحيانًا ..

مددت إصبعي إلى قرص الهاتف وضغطت على السماعة ما بين أذني وكتفي لأتمكن من تقليب دفتر الأرقام الصغير..

هاهو ذا رقم (مدحت)..٣.. ١.. ٤.. ٢.. ٥.. ٦.. صوت الرنين المتقطع ثم صوت طفلة تتحدث بأسلوب الأطفال الناعس المتراخي.. ماذا تريد؟.. بابا؟.. ماذا تريد من بابا؟.. إلخ.. ثم صوت رجل يضحك ويتناول السماعة منها ليسألني في رصانة عن شخصي.. ثم...

- (رفعت)!.. أيها النذل العجوز!. أين ذهبت؟

- أنا أتحدث من (المنصورة).. من عند (إلهـ...).. مدام (إلهام)..

ارتفع صراخه الودي في الهاتف يحلف آلاف الأيمان إننا لابد ملتقيان.. أعطيته العنوان وطلبت منه أن يحضر (عماد) و (عبير) معه لأن هناك موضوعًا ما لابد من مناقشته.. حاول التنصل أو التأجيل لكني كنت مصرًا كالخرتيت..، من ثم وعدني بأن يحضر أخاه وأخته وزوجته وزوجة أخيه وزوج أخته والأولاد جميعًا.. و...

- أ.. (مدحت).. إن الموضوع جدي وخطير.. وليس حفل تعارف لنادي الـ (روتاري).. حاول أن تأتي أنت و (عماد)

و (عبير) فقط، على الأقل حتى لا ندمر شقة مضيفي...

- فليكن...

ووضعت السماعة وهززت رأسي للزوج و(إلهام) أن قد تم الاتفاق دون خسائر.. وسيكون موعدنا هذا المساء..

❋ ❋ ❋

وكانت الأم تقطع لعبنا أحيانًا لتحضر لنا صينية عليها أكواب عصير البرتقال أخضر اللون (!!).. أكواب باردة تكاثف بخار الماء على زجاجها.. فكنا نرشفها في نهم وسرعان ما تتكاثف قطرات العرق على جبيننا.. وتغمرنا النشوة..

- برتقال عصيره أخضر وجيلي أزرق!.. لا يوجد شيء واحد طبيعي في هذا البيت.. قالتها (إلهام) وهي تتأمل كوبها في فتور..

- و لكن هذا هو ما يجذبنا إليه.. أليس كذلك؟

- بلى.. ولكن.........

❋ ❋ ❋

ولكن اللقاء كان حارًا في شقة (إلهام)... أبناء خالي الأعزاء.. لقد تبدلوا جميعًا لكن الماضي ما زال في أعطافهم..

كان (عماد) قد صار مهندسًا.. و (مدحت) معلمًا.. و(عبير) ربة بيت غير

عاملة..، ازداد التوءمان بدانة وازدادت أختهما ضمورًا..

وفي الصالون بدأنا المناقشة... في كياسة ذكرتهم (إلهام) بذكرانا المشتركة المرعبة.. قصة (شيراز) و أمها والمأساة التي سببتها لنا (إلهام) بغيرتها الشديدة..

ثم إنها بدأت تحكي التطورات الأخيرة.. وأنهت كلامها قائلة إن هناك ما يدعوها للاعتقاد أن (شيراز) قد عادت تبحث عنا...

(عبير) كانت أول من تكلم.. فصرخت في استبشاع:

- كفاك يا (إلهام) أرجوك.. لقد حاولت نسيان هذه القصة.. وكدت أنجح لولاك..!

وهز (مدحت) رأسه في استخفاف:

- ألهذا طلبت لقاءنا؟.. كنت أظن الأمر أشد هولًا!

أما عن (عماد) فلم يأت باعتراض معين.. ثم إنه رفع رأسه نحونا في قلق وهمس:

- لم أرد أن أخبركم كي لا تقولوا إنني معتوه.. لكن ما دمتم ترون ذلك وتشاركونني الرأي فإنني...

قلت له في غيظ:

- عم تتحدث بالذات؟

ابتلع ريقه متحاشيًا نظراتنا.. وغمغم:

- عن (شيراز) بالطبع.. لقد رأتها ابنتي منذ خمسة أيام..!

- هكذا؟.. وهل دعتها لمشاطرتها اللعب؟

- كان هذا عسيرًا...

ثم رفع عينيه إلى وجهي.. وأردف:

- تقول ابنتي إن الفتاة التي قابلتها كان لها نابان حادان.. وكان لسانها مشقوقًا كالأفاعي...!!

*   *   *

٦ - الملاك المفترس..

تربعت على الفراش مرتديًا منامة (عماد) أدخن سيجارتي الأخيرة (سيجارة ما قبل النوم وليس الموت طبعًا) حين دخل (عماد) الحجرة..

فما إن شاهد سحب الدخان حتى أخذ يلوح بيده في الهواء كمن يختنق.. وهتف وهو يسعل:

- ماذا أقول في طبيب يدخن كأوتوبيس الأرياف؟..

- نفس التعليق السمج الذي لا أسمع غيره.. إنني أدخن لأنني ضعيف الإرادة مزعزع الشخصية مختل النفسية.. فهل هذا ما تريد قوله؟...

- بالحرف الواحد..!

- إذن قد أرحتك من الثرثرة.. والآن هلم اجلس وقل لي ما يدور بخلدك...

تربع على الفراش جواري وبدأ يشرح لي مخاوفه..

كان الليل قد انتصف حين اندس تحت الغطاء جواري فأدركت في هلع أنه سينام معي على سبيل الترحيب!..

إنه بيته فلن أجرؤ على أن أطرده من الحجرة لينام في أي مكان أخر.. وزوجته تغفو مع ابنته في الفراش الآخر باعتبار هذا هو التنسيق الوحيد الممكن حتى لا ينام أحدنا على الأرض...، وبعد دقائق بدأ صوت شخيره المزعج فأيقنت أنه لا نوم في هذه الليلة السوداء...

* * *

تك تك!.. تك تك!.. خ خ خ!.. تك تك!.. خ خ خ!

طريف هو امتزاج صوت شخيره مع صوت محرك الساعة.. والتزامن المثير للإعجاب.. أحداث يومي كلها تتشكل في الهواء الأسود كأنه شاشة وهمية تسقط عليها أشعة وعيي..

و..... صرير الباب...

ظل يرتمي داخلًا الحجرة.. ثم (سيلويت) ابنته يملأ فتحة الباب المضيئة.. ماذا أتى بها ها هنا؟.. إنها حجرتها على كل حال ولربما نسيت شيئًا ما من كتب دراستها أو حاجياتها وجاءت لتأخذها في هدوء دون

أن تزعجنا.. ها هي ذي تنسل في بطء إلى جوار الفراش..

صوت حفيف ثوبها الطويل.. وصوت قدميها الحافيتين.. وصرير الباركيه...

تأملت في شرود شعرها الطويل المنسدل على كتفيها يتلألأ في ضوء الصالة الخافت.. و...

وهنا أدركت أن هذه ليست ابنة (عماد)..!..

إنها - بالتأكيد - أطول قامة منها.. و(سارة) ابنة (عماد) لا تملك سوى بعض خصلات الشعر القصير على جانبي جمجمتها..!..

توقف قلبي عن الخفقان...

إن هذه الفتاة - أو هذا الشيء - يقترب بتؤدة من الفراش.. من الناحية التي أنام عندها.. إنني الآن أراها بوضوح...

كانت هي (شيراز)!..

فـ.. فـ.. فتحت فمي لأ.. لأصرخ لـــ.. لكن الكلمات - بالطبع - انحشرت في حلقي.. ثم...



إن هذه الفتاة ، أو هذا الشيء ، يقترب بتؤدة من الفراش ..

ساد الظلام برهة عرفت بعدها أنني فقدت الوعي لجزء من الثانية.. لكني حين عدت لعالم الواقع كانت بعد هناك واقفة جوار فراشي ترمقني بعينين زرقاوين شفافتين..

- (رفعت)..!.. ما زلت تذكرني..

-......................!

- يجب أن تنقذني..!.. ألا ترى أنني أتحول لمسخ؟!

وفي بطء فتحت فاها.. لسان مشقوق كلسان الأفاعي ينزلق ما بين صفين من الأنياب البيضاء اللامعة..

- يجب أن تفعل شيئًا.. أرجوك!!

سأصرخ.. هذه المرة سأصرخ ولن تحتبس الحروف في حلقي.. أصرخ..

أصرخ..
استيقظ (عماد) مفزوعًا فما إن رأى ما رأيت حتى فهم على الفور ما هنالك.. وكانت مشاركته - ذلك الأبله - فعالة حقًا اذ احتضنني في هستيريا وشرع يصرخ معي..!
صراخ.. صراخ.. صراخ...
نور الغرفة يضاء.. وزوجة (عماد) وابنته تقفان على الباب ترمقاننا في جزع ودهشة...
نظرنا حولنا فلم نر الفتاة....
اختفت.. تبخرت تمامًا...
طفقنا بكلمات مبعثرة نشرح للزوجة ما حدث.. شبح فتاة كنا نلعب معها في الطفولة

برغم أنها كانت قد توفيت.. الأمر الذي لم يقنعها كثيرًا في الواقع..

- يا فرحتي!.. رجلان ناضجان مثلكما يصرخان بعد منتصف الليل كالندابات.. وكل هذا لأنهما يخشيان الظلام!

- ليس الأمر كما تتصورين يا (فايزة).. لقد رأيناها معًا في نفس الوقت...

مصمصت بشفتيها وتثاءبت ثم أمسكت كف ابنتها عائدة إلى حجرة النوم.. ولم تنس أن تسألنا عما إذا كنا نرغب في ترك النور مضاء..

بالطبع نرغب.....!

❋ ❋ ❋

في الصباح اتصلت بـ (مدحت) لأخبره بما حدث أمس فوجدته في حال سيئة جدًا.. فـ (شيراز) - كما قال - كانت هناك.. تنتظره جوار باب دورة المياه وكانت تضحك برقة..!

أما (إلهام) فاكتفت بأن أكدت - في فتور - أن (شيراز) ظلت تجوب صالة دارها طيلة الليل..!، وأنها - حين أيقظت زوجها - لم تجد للفتاة أثرًا وصارحها زوجها بأنها حقًا مخبولة...

إن ما حدث لا يترك مجالًا للشكوك..

إن اللعينة - (شيراز) لا (إلهام) - تحوم حولنا وتطاردنا..

كأنها أدركت أننا التقينا بعد كل هذه الأعوام...

كأنها تريد منا شيئًا...
كأنها تطلب منا أن نعود إلى البيت..

* * *

وعند (عماد) التقينا..، كانت (إلهام) قد جاءت مع زوجها الذي بدا غير مصدق لكل هذا السخف..

لكنه حين عرف أننا جميعًا رأينا الفتاة أمس وفي نفس الظروف تقريبًا بدأ يهتم.. وعلى وجهه الأشيب الوقور ازدحمت تجاعيد القلق... لا توجد هلوسة جماعية على الأقل بالنسبة لأشخاص متباعدين..، وهكذا دار الحوار بيننا..

كان السؤال الأول الذي سألته (عبير) هو: لماذا عادت (شيراز)؟..

الإجابة سهلة: عادت لأنها تريد شيئًا ما...!
السؤال الثاني: ما هو هذا الشيء؟..
الإجابة: لا ندري.. ليتها تحدثت صراحة..، لكني أضفت هنا أنها طالبتني بإنقاذها قبل أن تتحول إلى مسخ.. وهذه نقطة هامة..
السؤال الثالث: ما سر التبدل البشع في مظهرها؟..
الإجابة: لأنها - كما قلنا - في سبيلها للتحول إلى مسخ..
السؤال الرابع: لماذا نهتم بكل هذا؟..
الإجابة: لأنها تطاردنا.. ومن الواضح أنها لن تتوقف عن ذلك.. ولا أحد منا قادر على ممارسة حياة طبيعية منتجة في وجود شبح

في داره.. فضلًا عن أننا جميعًا سنصاب بالخبال خلال أيام إذا استمر الحال على هذا المنوال...

السؤال الخامس: وماذا سنفعل؟...

الإجابة: لا شيء.. إن (شيراز) هي التي ستتخذ الخطوة الأولى..

فقط علينا أن نبقى متلاصقين وعلى اتصال...

لا نعتقد أن (شيراز) ستؤذينا.. فقط ستكتفي بتعكير صفو حياتنا وإصابتنا بجلطات في المخ والشرايين التاجية...

لكنها أحبتنا.. نحن متأكدون من ذلك...

قالت (إلهام) في غيظ أثار دهشتي:

- كنتم جميعًا تحبونها.. خاصة السيد (رفعت)...

هززت رأسي في ارتباك ودمدمت:

- لم أكن قد رأيت عيونًا زرقاء في حياتي!.. هذا كل شيء!

- عذر أقبح من ذنب...

* * *

أطفال تغمرنا النشوة...
نتبادل ألفاظًا سكري..
ألتذ براءة ضحكتها..
أجتر عبير سذاجتها..
وتكافح كي تبدو أنثي..
وأجاهد كي أبدو رجلا...!
من قصيدة قديمة لـ د. (رفعت).

سألت (عماد) وأنا أنتزع آخر سيجارة في العلبة..

- لم نعرف بعد من يقطن البيت الآن؟ ولا مالكه..

هز (عماد) رأسه.. وداعب شعر ابنته التي تلهو على البساط ببعض المكعبات الخشبية.. وقال:

- بعد وفاة الأسرة آلت ملكية البيت لأحد الورثة المقيمين في الخارج.. ولم يره أحد - ولا أبناؤه - طيلة هذه السنين..، إن سمعة البيت سيئة ولن يدهشني ألا يكون قد وجد مشتريًا...

- ولكن.. لابد أن هناك شخصًا ما يعني بالبيت.. محاميًا أو خفيرًا أو أحد

الأقارب..، ما الذي يمنع أي معتد من أن يقتحم البيت ويستولى عليه؟

- على الأقل لن يكون من أبناء (المنصورة).. فكلهم يعرفون هذا البيت ويخشونه كالموت ذاته..

ساد الصمت برهة.. ثم إنني نظرت إلى (مدحت) وسألت:

- هل عرفتم تفاصيل أكثر عن الحادث الذي أودى بالأسرة؟

قال (مدحت) وهو يضع ساقًا على ساق:

- إن القصة قديمة جدًا وقد دخلت في قاموس الأساطير منذ زمن.. لكن لا أحد يعرف سوى أن الأسرة فقدت عائلها.. ثم وجدوا جميعًا موتى..، ويقال إن اللعنة حلت بالدار من لحظتها...

- إنها القصة القديمة إذن....

ثم إنني ألقيت برأسي للوراء وتنهدت..

- من الصعب علي أن أصدق كل هذا.. أنا بالذات محارب الخرافات القديم.. أقابل شبحًا بل وأطالب بإرضائه..

كانت ذكرى (شيراز) قد تبخرت تمامًا ولم تعد تزور وعيي، وحتى حين كانت تزوره في ليالي الشتاء الباردة كنت أقول لنفسي إن هناك (تفسيرًا ماديًا ما) لكل هذا...

منذ اعوام لم يكن كبريائي وصمود منطقي العلمي قابلين للتزعزع وحين اصطدمت بالمذءوب والنداهة وآكل البشر و (الزومبي) و (ميدوسا) وجدت دائمًا ذلك التفسير المادي..

لكن وحش (لوخ نس) و (العساس) و(الفرعون الغاضب) أحدثوا شروخًا في جدار هذا المنطق الصلب.. واليوم ها هي ذي (شيراز) تعود لتؤكد لي أن كل شيء ممكن، وأن ضيق الأفق ليس هو من يؤمن بعالم ما وراء الطبيعة.. بل هو من لا يؤمن به..

عجيب هذا الكون**!**.. غموض قاس أليم.. والمصيبة أنني سأموت يومًا دون أن أفهم.. ودون أن أتعلم.. وستظل علامات الاستفهام خالدة تؤرق منام شاب آخر يحسب نفسه ذكيًا.. وستؤرق منام أحفاده وأحفاد أحفاده إلى يوم الحساب..**!**

وفجأة.. وفي الضوء الخافت المخيم على غرفة الجلوس لمحت وجوه الجالسين حولي

تشحب...

نظرت لأرى ما أثار رعبهم فوجدت...

كانت (شيراز) واقفة عند مدخل الحجرة ووجهها خارج دائرة الضوء..!

وسمعت ابنة (عماد) تزأر وقد وقفت في هلع ناثرة مكعباتها الخشبية من حولها.

- (بابا).. إنها نفس الفتاة!.. لقد عادت!

تصلبت أجسادنا جميعًا وشلت أفكارنا.. بعدُ لم نستطع استيعاب فكرة أننا نرى شبحًا وأن هذا الشبح يقف الآن معنا في غرفة واحدة..

كانت تتحرك ببطء.. ووجهها يدخل دائرة الضوء.. الآن نراه.. لن أصفه لك تاركًا الأمر لخيالك لكنني فقط أزعم أنه أبشع وجه رأيته في حياتي..

كانت الفتاة صادقة في ما قالته...

إنها تتحول فعلًا إلى مسخ.. وبسرعة لا تصدق..

ومن أعمق أعماق الهاوية حيث أرواح المعذبين جاءنا صوتها المتحشرج الباكي:

- أنتم لم تنجدوني حين أتيت لكم طالبة العون..

ونظرت بعينيها الحمراوين لي وهمست:

- الويل لكم!.. الويل لكم!

❋ ❋ ❋

٧ - فلندخل البيت..

اقتضى الأمر بعض الوقت حتى تفيق (عبير) من إغماؤها، وتكف (سارة) عن الصراخ الهستيري، ويستعيد (عماد) ترابط كلماته، ويستعيد قلبي انتظام خفقاته...

وحين عادت المياه إلى مجاريها كانت (عبير) أول من تكلم.. فصاحت في هستيريا::

- ماذا تريد هذه الملعونة منا؟.. كيف ننقذها؟

قالت (إلهام) وهي تبلل وجه (عبير) بمنديل مبتل:

- من الواضح أن المشكلة تبدأ وتنتهي في البيت...

قال (مدحت) في ضيق صدر:

- إذن ندخله!

هب (عماد) مذعورًا.. فالفكرة لم تكن واردة لديه أصلًا. ثم رأى أن الحكمة تقتضي بألا يبدو مذعورًا إلى هذا الحد.. فقال مبتلعًا ريقه:

- لقد أقسمنا أمام أبي - رحمه الله - على أن نبتعد عن البيت..

راقت لي الفكرة وبدا لي أنها ستضفي على جبننا مسحة لا بأس بها من الشرف.. لكن (عبير) - عليها اللعنة - قالت بمجرد أن أفاقت تمامًا:

- كان القسم يتضمن أننا لن ندخل البيت ما دام أبي حيًا.. أما وقد توفاه الله فقد تحررنا من قسمنا.. يمكننا دخول الدار!

حقًا... يالك من عبقرية!.. كنت أخشى أن نحرم من هذه الغامرة الشيقة.. ألا بارك الله فيك!..

بلل (مدحت) شفتيه الجافتين بلسانه.. وهمس:

- إذن.. متى ندخله؟!

❋ ❋ ❋

ياله من سؤال!..

بالطبع في ضوء النهار يا (مدحت).. وبالطبع بعد أن أتسلح بمسدسي.. لا داعي لأن تحضر أحد خبراء الأرواح لأن المشكلة مشكلتنا ولن يساعدنا كثيرًا.. ثم إن النصابين فيهم أكثر بمراحل من الصادقين،

ولا نود أن ندخل في مشكلة الهدهد اليتيم والنملة المصابة بالبواسير..

كذلك لا أري داعيًا لأن يصحبنا زوج (عبير) وزوج (إلهام) لأن البيت لا يعرفهما ولا يحمل لهما ذكرى..

ولربما أدى هذا إلى نتائج غير متوقعة..

سندخل البيت في نفس التشكيل القديم وستكون كل من المرأتين خير رفيق للأخرى.. وسيكون التوءمان خير رفيقين لأختهما...

هل نحمل شيئًا آخر؟.. في الواقع لا أدري باحتمالات ما قد نراه في الداخل..

لكني لا أرى مانعًا من أن نحمل بطاريتين وحبلًا..

لماذا الحبل؟.. لأنهم يحملون حبلًا دائمًا في القصص يا سيدي**!**..

(عماد) يحمل سكين الجيش السويسري من طراز (فكتوريا نوكس) وهى تعطى فرصة استعمال مفك ومطواة وفتاحة زجاجات.. إلخ...

معي مصحف صغير الحجم.. و.. ماء وطعام؟.. لا أدري يا (إلهام) فلا أظن المسألة تحتمل كل هذا التعقيد.. لكن... لم لا؟.. احملي حقيبة صغيرة بها بعض المعلبات والخبز وزمزميات ماء.. كلا**!**... لا داعي لعمل شطائر كفتة أو لحم بارد.. فلسنا ذاهبين إلى حديقة الحيوانات بالطبع...

هل أنتم مستعدون؟...

وهل كل شيء على ما يرام؟..
إذن هلموا ندخل البيت...!

❋ ❋ ❋

مرة أخرى رائحة الفجر المشبعة بالمازوت الذي لا تعرف مصدره..
الضباب يحيط بالبيت الجاثم كوحش أسطوري على حافة النيل..
صوت العشب يتهشم تحت أقدامنا والبيت يكبر.. يكبر..
ومرة اخرى ننسل كقطط كبيرة متحفزة نحو عصفور غافل..
لماذا اخترنا الفجر؟.. سؤال غريب.. بالطبع لأنه يبعدنا عن عيون الفضوليين الذين سيدهشهم أن يروا ثلاثة رجال

وامرأتين يدخلون بيتًا مهجورًا.. ولأن الفجر هو الوقت الذي قابلنا فيه (شيراز) أول مرة.. ولأن الفجر هو الوقت الوحيد الذي يجمع ما بين أسرار الليل ووضوح النهار.. سترى نفس أشباح الظلام ولكن في ضوء الصباح...

- نسيت أن أحضر ثومًا!

قلتها وأنا ألهث.. فسألني (عماد) في حيرة:

- ثوم؟.. من أجل الطهي؟..

- بل لقتل مصاصي الدماء إن وجدوا!.. تعلم أن لي خبرة في هذه الأمور!

قلتها في سخرية متوقعًا أن يموتوا ذعرًا.. لكن (عبير) مدت يدها إلى حقيبتها

وأخرجت سكينًا لها لون فضي براق.. وسألتني ببراءة:
- هل هذه تناسبك؟.. قرأت أن مصاصي الدماء يخشون الفضة كثيرًا!
- يالك من عبقرية!...
الواقع أنني نجحت في إرعاب نفسي حتى الموت، ولولا بقية من حياء لوليت الأدبار...
هاهي ذي بوابة البيت الصدئة والنباتات الشيطانية تلتف حولها..
- لكنها مفتوحة!
كذا صرخ أحدنا- ربما أنا - وهو يتصلب أمام البوابة العجوز..
قال (مدحت) وهو يرمقنا بنظرة ذات معنى:

- هذا طبيعي.. إن البيت يذكرنا بعد كل هذه الأعوام.. وينتظرنا!

انتصب شعر رأسي - أو ما تبقى منه - وتلاحقت أنفاسي.. وفي داخلي تردد صراخ ملاكي الحارس: لا تدخل!.. بربك لا تدخل!.. اركض بعيدًا وكأن الشيطان يطاردك...

لكن هذه حقيقة واقعة..

إنهم يجتازون البوابة الواحد تلو الآخر.. هم خائفون لكنهم لم يتراجعوا.. والآن جاء دوري... يخيل لي أن كل قصص الشجاعة في التاريخ جاءت من أناس خشوا أن يبدوا جبناء...

والآن هأنذا أجتاز البوابة.. ربما لأول مرة منذ عشرين عامًا.. و...

كرررررررررريك!...

هذا الصوت..

نعم يا رفاق!.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه في استمتاع سادي مرعب..

لقد انغلقت البوابة خلفنا وبمجرد أن عبرتها أنا..!

* * *



نعم يارفاق !.. لقد حدث ما كنتم تنتظرونه فى استمتاع سادى مرعب ..

- لا توجد مشكلة.. نستطيع تسلق السور في أية لحظة..

قالها (مدحت) وهو يتأمل البوابة المغلقة ويحاول فتحها.. لكنها كانت مغلقة بكالون (لاتش) داخلي يحتم على من يريد فتحها أن يجد المفتاح..

- (رفعت) الأحمق جذبها خلفه أو اشتبكت بثيابه..

صحت وقد تصاعد الدم إلى رأسي:

- وهل تجد هذا تصرفًا متوقعًا مني؟!

- إذن هو الهواء...

رفعنا رؤوسنا لأعلى.. ثم تبادلنا النظرات..

إن الإجابة متوقعة وهي أنه لا توجد نسمة هواء واحدة...

إن من أغلق البوابة هو بنفسه من ينتظرنا هنا..

قلت وأنا أشعل سيجارة:

- ما رأيكم؟.. يمكننا الانتظار حتى يأتي أحد المارة فنستغيث به لإخراجنا.. أو نحاول تسلق السور الحديدي، ولا نريد التورط أكثر داخل البيت بينما سفننا محترقة...

ابتسم (مدحت) للتشبيه.. وقال:

- لولا السفن المحترقة ما انتصر (طارق بن زياد).. لا مفر الآن من التمادي إلى آخر الشوط...

قالت (إلهام) مؤمنة على كلماته:

- إن الاستغاثة بأحد المارة ستوقعنا في مشكلة هي لماذا اقتحمنا هذا البيت؟

هذا - بالطبع - مالم يظننا أشباحًا ويموت بالسكتة القلبية.. أما عن تسلق السور.. فأنا بدينة جدًا و (عبير) حامل في الشهور الأولى وأنت يا د. (رفعت) مصاب بالربو وضيق الشرايين التاجية - كما قلت لنا - فكيف بربك تتسلق هذا السور؟

قال (مدحت) وهو يشير لساقه:

- وأنا مصاب بكسر قديم لم يلتئم بشكل مرض..

* * *

نظرت بعينيها الحمراوين لي.. وهمست:

- الويل لكم!.. الويل لكم!

* * *

عبر الأشجار العتيقة الملتفة حول نفسها ألمًا مضينا نشق الطريق نحو البيت..

الحذر يحرق أطراف أعصابنا فلو أن عصفورًا غرد لوثبنا جميعًا مترين في الهواء.. لكن العصافير - كما قلت لك - لم تكن تدخل هذه الحديقة..

ها هو ذا مدخل الدار.. وجواره مطرقة على شكل قبضة اليد..

لا أثر لكائن حي.. لكن الباب مفتوح!..

كدنا نندفع داخلين لولا أن هتف (مدحت) محذرًا:

- لحظة!.. ليس هذه المرة!

ثم إنه أخرج قطعة حبل من جعبته وربط طرفها بمقبض الباب.. ثم شد الحبل ليربط الطرف الآخر في جذع شجرة قريب..

- بالطبع ينتظر هذا الباب دخولنا لينغلق مثل الباب الخارجي.. لكننا لن نسمح بذلك!

ثم نظر (مدحت) لي و (عماد) متسائلًا:

- أعتقد أنه من الحكمة أن ينتظر أحدكما خارج الدار.. من الغباء أن ندخل جميعًا غير عالمين ما ينتظرنا بالداخل..

- ليس أنا..

قلتها على الفور وقد رأيت بعين الخيال صورتي واقفًا على مدخل الدار أدخن سيجارتي العاشرة يعصرني القلق والرعب.. غير مسموح لي بالدخول ولا مسموح لي بالفرار..

وهنا صاحت (إلهام) أنها ترحب بالقيام بهذه المهمة التي تبدو سهلة..

- لا تنسي إذا أنت رأيت ما يريب أن تصرخي..

- حتمًا..

وفي صمت أضأنا بطاريتينا ودلفنا من الباب.. الظلام ورائحة الرطوبة والعطن.. والغبار يغلف كل شيء.. هل تغيرت الموجودات عما كانته؟.. لا أذكر.. لا أحد يذكر.. لا نذكر حتى الإضاءة التي كنا نرى الأشياء فيها.. هل كانت كهربائية أم إضاءة شموع؟

غريب أننا لم نلحظ ذلك..

سمعت (مدحت) يهمس في أذني:

- احمل مسدسك في يدك تحسبًا للمفاجآت..

تحسست جيبي في حيرة.. ثم همست في أذنه:

- لقد اختفى!.. تبخر!.. لا أدري كيف.. لكن لا تدع أحدًا يشعر بذلك في الوقت الحالي!

....

* * *

٨- إنه حي!..

كنا موقنين أننا سنراها..

لكننا لم نملك أدنى فكرة عما سنشعر به لو حدث ذلك..

في أعماقنا تمنينا أن تكون قد رحلت.. لم يكن أحدنا راغبًا في رؤية ذلك الوجه الشائه مرة أخرى خاصة على ضوء البطارية الخافت باعث الظلال..

ها هي ذي (عبير) بقامتها الناحلة تنزع عن وجهها خيوط العنكبوت الكثيفة.. و (عماد) يرتجف كالعادة.. وأنا أتظاهر بالثبات.. أما (مدحت) فهو أكثرنا جرأة واقتحامًا، لهذا تحول إلى قائد مرتجل لجماعتنا الصغيرة..

المائدة الطويلة حولها مقاعدها الكابوسية.. والمزهرية العملاقة والشمعدان..

الستائر المنسدلة.. تماثيل المستحمات البرونزية تتلوى في أوضاع، حاول المثال أن يجعلها مغرية.. المرايا العديدة التي فقدت طبقة طلائها..

همست في أذن (مدحت):

- هل تذكر قصة (شارلز ديكنز) الشهيرة (توقعات عظيمة)؟.. الآنسة العجوز التي ظلت قاعة المائدة في دارها خمسين عامًا بحالتها حتى تورتة العرس والمشروبات.. لقد نسيت اسمها..

- لا أقرأ هذا الهراء الذي تقرأه.. وليس الوقت مناسبًا لاستعراض ثقافتك..

- لا حيلة لي في هذا.. إن كل موقف في حياتي يذكرني بموقف مماثل في عمل أدبي.. و.....

إن (عبير) متصلبة كالتمثال.. فماذا حدث؟..

دنوت منها.. ونظرت لعينيها متسائلًا عما هنالك..

همست وهي ترمق مقعدًا إلى جوار (كونسول) صغير مذهب:

- (رفعت)...

- ماذا؟

- إنه حي!

* * *

كفاك سخفًا يا (عبير).. بالله عليك كفي عن هستيريا النساء لحظة واحدة.. لقد رأيت المقعد يتحرك.. فلنقل إنك اصطدمت به.. فلنقل إنها رقصة الظلال.. فلنقل إنك حمقاء.. فلنقل أي شيء..

لكن لا تزعمي لحظة أنه يتحرك حركة ذاتية..!

صاح (مدحت) في ضجر:

- يا إخوان.. لقد دخلنا هذه الدار لنواجه أشباحًا فليس غريبًا أن نرى كرسيًا يتحرك..!.. إن من يذهب لصيد النمر لن يضايقه كثيرًا أن يرى آثار مخالبه على الأرض...

وهكذا....

شرعت - و أولاد خالي - نفتش الطابق السفلي على ضوء البطاريتين فلم نجد شيئًا غير عادي...

مجرد بيت لم تدخله قدم منذ عقود...

وهنا صاح (عماد) وهو يشير للأرض مسلطًا ضوء البطارية:

- انظروا!

فنظرنا...

إلى الأرض المكسوة بطبقة كثيفة من غبار الأعوام نظرنا..، كانت هناك آثار أقدام.. أقدام صغيرة عارية كأنها لطفلة مشت حديثًا في هذه القاعة..

(شيراز) كانت حافية في أغلب الأوقات التي عرفتها فيها، ومن الغريب أن هذا لم يبد شاذًا لنا قط..

لو كانت هذه آثارها فإن لها وجودًا ماديًا..

ولكن.. هذا حتمي.. لقد كانت تلعب معنا ونلمسها ونجرحها.. فهي لم تكن طيفًا بل كتلة إكتوبلازمية متجمدة..

إن (شيراز) هنا..

وبالتحديد من فترة قصيرة جدًا...

استنتاج لا بأس به.. أما الاستنتاج الأهم فهو أنها - آثار قدميها - تتجه في ثقة إلى الطابق العلوي..

همس (مدحت) وقد غلبته الرهبة:

- إذن سنجدها هناك..!

- بل هي تريد منا أن نذهب هناك!

❋ ❋ ❋

- سأموت إذا ما طلبت مني ذلك...
- إذن.... مت!!

* * *

قال (مدحت) وهو يتحاشى النظر لنا.

- من الحمق أن نصعد جميعًا.. بل الأفضل أن ينتظر اثنان منا هاهنا حتى ينجدا الآخرين في حالة الخطر.. ومن يدري؟.. ربما كان الاثنان اللذان سيصعدان هما منقذا الآخرين اللذين سيبقيان هنا!

لهذا السبب - ولأنني أكره دور المنتظر القلق - قررت أن أكون من الصاعدين للطابق الاعلى.. وكانت المشكلة هي الحاجة الماسة لشخص جريء مثل

(مدحت) في المكانين معًا.. ثم استقر الرأي على أن يصعد معي..

على ضوء البطارية نرى درجات السلم الخشبية العتيقة مغطاة بأطنان من الغبار وآثار القدمين الصغيرتين..

نشم رائحة الأعوام.. ونسمع تهشم الخشب الرطب.. ونشعر باقتراب كارثة من نوع ما..

❋ ❋ ❋

أصدقاء (شيراز)؟.. مرحبًا بكم.. إن أصدقاء ابنتي هم أبنائي..

❋ ❋ ❋

إنه الطابق العلوي حيث غرف النوم..
سنقوم بدور ثقيل على النفس هو فتح هذه الأبواب الموصدة بابًا بابًا باحثين عن شيء لا ندري كنهه..
الباب الأول.. فراش عتيق وستائر مغلفة بالعنكبوت و... جو الغرفة يوحي بأنها غرفة نوم امرأة.. ربما الأم بالذات..
الباب الثاني.. لا ينفتح.. موصد بالمفتاح من الداخل أو الخارج لا أدري..
الباب الثالث.. غرفة نوم غارقة في الغبار وريح القدم.. والوطاويط.. و...
ماذا؟.. وطاويط؟!..
بالطبع!.. لقد نسينا أمرها ونسينا أن هذا البيت هو بيت الأحلام بالنسبة لها.. وها هي ذي تلك الثدييات المجنحة البشعة

تنطلق مرفرفة بأجنحتها السوداء في أرجاء الغرفة وقد أقلق سباتها صوت حركتنا..
أغلق (مدحت) الباب على الفور قبل أن تخرج هذه الكوابيس الحية لنا..

❋ ❋ ❋

كل ما أرجوه هو أن تعودوا إليّ من وقت لآخر..

❋ ❋ ❋

وهنا دوى الصوت..
في البدء ظننا أن المنزل ينهار فوقنا ثم أدركنا - بعد ثوان - أن هذا صوت باب ينغلق بشدة في الطابق السفلي...

تبادلت و (مدحت) نظرة عدم فهم.. ثم فجأة أدركنا ما حدث..

باب المنزل!.. هذا بالتأكيد هو صوته!.. لقد انغلق علينا لنصير سجناء في هذه الدار الرهيبة..

همست بصوت كالفحيح:

- لكن كيف؟.. إنك قد ربطته بعناية..

ابتلع (مدحت) ريقه.. وهمس:

- المشكلة هنا أن هناك شيئًا قد حدث لـ (إلهام) بالتأكيد!.. ما كانت لتترك الباب ينغلق وهي جواره..

قلت وقد أدركت خطورة الموقف:

- و (عبير) و (عماد)..!.. لو أنهما بخير لما انغلق الباب!

إذن هذا هو ما حدث..

إن حاجتنا لتأمين خط رجعتنا قد جعلتنا نتجزأ إلى مجموعات صغيرة.. (إلهام) على الباب.. (عبير) و (عماد) بالطابق السفلي.. أنا و (مدحت) بالطابق العلوي..، وهكذا تركنا جيوبًا معزولة في عدة أماكن..

ترى ماذا أصاب الآخرين؟..

هرعنا جريًا إلى الطابق السفلى فوق الدرجات العتيقة.. كان ضوء النهار قد بدأ يتسرب من شقوق النوافذ عبر تمزقات الستائر.. وقد غدا بإمكاننا أن نتبين ما يدور حولنا دون جهد كبير ودون استعمال ضوء الكشاف..

لم يكن هناك أثر للبائسين..

وحين جرينا إلى باب الفيللا نتحسس مقبضه؛ أدركنا أنه مغلق بإحكام.. ومن المستحيل فتحه..

إذن نحن معزولان في هذا البيت..
لا مخرج لنا.. ولا رفيق..
ولكن.... أين ذهب الجميع؟

❋ ❋ ❋

- (شيراز).. أنا خائف...
- خائف وأنا معك؟

❋ ❋ ❋

- لكننا لم ننته بعد.. لن ينجح البيت في حصارنا.. نستطيع دائمًا تهشيم النوافذ

الخشبية المضعضعة والفرار قفزًا من فوق سور الحديقة...

قالها (مدحت) في توتر محاولًا أن يتماسك..

قلت في لهفة:

- إذن.. لنفعل ذلك الآن...

كان المزلاج الخاص بمصراع النافذة صدئًا متجمدًا في مكانه، لهذا تشبثت بقوائم الخشب وشرعت أهزها في جنون محاولًا تهشيمها..

كان ذلك حين دوت الصرخة..

عميقة كانت.. مكتومة كانت.. قادمة من آبار الجحيم حيث تحترق أرواح الخطاة وأجسادهم.. وشعرت بالشعر على ساعدي ينتصب...

ثم تبادلت نظرة مع (مدحت) حين عرفنا مصدر الصرخة.. وفي نفس اللحظة همسنا بصوت كالفحيح:

- عماد!

شرعنا نثب درجات السلم إلى أعلى ثلاث درجات في كل وثبة غير عابئين بخطر تهشم الخشب العطن تحت كعوبنا... كان الصراخ مستمرًا آتيًا من إحدى غرف النوم القديمة التي لم ندخلها بعد.. وبركلة واحدة فتح (مدحت) الباب لنرى على ضوء البطارية آخر مشهد توقعناه..

كان هناك حبل يتدلى من سقف الغرفة.. وكان هناك شيء ما معلق بالحبل يتلوى كالأفعى.. وكان هناك فراش عتيق الطراز.. أما على الأرض فكانت هناك

أشياء مدببة بارزة لأعلى... استغرقنا ثلاث ثوان لنفهم.. وثلاث ثوان أخرى لنصرخ هلعًا..

وفي هذه اللحظة لمحناها... (شيراز)..!

كانت متربعة كالقطة فوق الدولاب الأثري الموجود بطرف الحجرة..وكانت قدماها العاريتان الدقيقتان متدليتين على حافة الدولاب وهي تحركهما في استمتاع.. والظلال تكسو وجهها لكننا كنا نعرف أنها هي..

وسمعنا ضحكتها الرقيقة العذبة تغرد:

- لقد تأخرتم كثيرًا في المجيء يا أحبابي!

ثم إنها استرخت في جلستها.. وأردفت:

- هاهي ذي لعبة مسلية أخرى.. إن (عماد) معلق كما ترون إلى السقف بحبل

متآكل في الواقع.. حبل ضعيف جدًا أكاد أسمع صوت تمزق ألياف.. صه!.. هل تسمعون؟.. كري كري توك!.. هي هي!.. وحين ينقطع الحبل سيهوي.. فوق ماذا؟.. فوق هذه النصال المدببة المشرئبة لأعلى التي ستحيل جسده البدين إلى مصفاة..!

وأخذت تضحك على حين رأينا على ضوء البطارية أنها لم تكذب في حرف واحد..

- كري كري توك!.. هاها!.. اللعبة هنا هي: هل يمكنكم إيجاد طريقة لإنزاله قبل كري كري توك؟.. إننا لم نله سويًا منذ أعوام.. ويبدو أننا سنمرح كما كان في الماضي أو أكثر.. هي هي!!

الشيطانة!.. كان (عماد) يتلوى في جنون متوسلًا لنا أن نفعل شيئًا.. ثمة خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه الآخر مشتبك في سترته.. لا أدري هل تتمزق سترته أولًا أم الحبل.. كل ما أدريه هو أن أمامه ثلاث دقائق أو أقل قبل أن...

صحت في هلع:

- كف عن التلوي كالأفعى أيها الغبي!.. إنك تزيد عمر الحبل قصرًا!

وأمسكت بيد (مدحت) في جنون متوسلًا له أن يفعل شيئًا.. توقف تفكيري تمامًا ولم يعد لدي سوى الأمل في أن يكون تفكير (مدحت) يقظًا...

- (مدحت)!.. فلنحاول التقاطه حين يسقط.. أنا وأنت...

دوى صوت (شيراز) المرح البارد القاسي يذكرنا:

- دقيقتان..!

همس (مدحت) في توتر:

- كلا.. إنه ثقيل الوزن وسيكون أثقل عند سقوطه.. ثم إنه لا يوجد بين النصال مكان يسمح لنا بوضع أقدامنا - سينتهي الأمر بتمزيقنا جميعًا...

- إذن نحاول تسلق الجدار وإنزاله...

- كلا.. كلا.. الجدار أملس.. وحتى إذا...

ولم يكمل عبارته لشرود ذهنه لكني فهمت.. حتى إذا تسلقنا الجدار فكيف نجذبه إلينا.. وكيف نرفعه؟..

لابد من فكرة أفضل.. كري.. كري!

- دقيقة...!

الثواني تمضي.. ولم نجد فكرة مناسبة..

كري كري!

- ثلاثون ثانية..!

* * *



كان (عماد) يتلوى فى جنون متوسلاً لنا أن نفعل شيئًا .. ثم خطاف مثبت إلى الحبل وطرفه الآخر مشتبك فى سترته ..

٩ - ألعاب شيطانية..

فجأة صرخ (مدحت):

- هلم يا (رفعت)!.. احمل السرير معي!

- ولكن...

- أسرع!.. سنضعه فوق النصال كشبكة يهبط فوقها (عماد) عند سقوطه.. هلم معي..!

وثبنا إلى السرير الثقيل وحملناه حتى كادت جذور عنقينا تنفجر - لكن لا وقت للمزاح الآن - ونقلناه لاهثين إلى الموضع الذي سيسقط فوقه جسد (عماد) بعد ثوان.. كري.. كري!

- ربع دقيقة!...

أطلق (مدحت) سبة.. ثم ألقى بالسرير في المكان المناسب له.. تساءلت في تشكك:

- ولكن هل يتحمله الفراش؟.. هل ستحمى الملة جسده حقًا؟

ارتجف ونظر لي زائغ العينين.. لا وقت لديه لاستبعاد هذه الفكرة.. فلتنجح أو لتحل اللعنة على كل شيء.. سيان عنده الآن..!

صوت (شيراز) الرقيق يدوي:

- فكرة لا بأس بها.. لكن جسده الثقيل سيهوي مهشمًا الفراش لتنفذ النصال عبره.. كنت أظنكم أذكى من ذلك.. و الآن دعونا نر مدى صواب فكرتكم.. هيه!.. هو ذا الحبل يقطع.. هيه!.. إنه يسقط.. يسقط!

❋ ❋ ❋

لقد فعلت الطبيعة كل ما بوسعها كي تحذركم من أن ما يجري في هذا البيت مريب.. لكنكم لم تفهموا...

* * *

ما إن هوى الجسد من السقف حتى أغمضنا عيوننا - تلقائيًا - متوقعين كارثة...

لكننا - حين فتحناها - لم نجد كارثة.. بالأحرى لم نجد شيئًا على الإطلاق.. لا (عماد) ولا (شيراز) ولا حبلًا يتدلى من السقف.. لا شيء!.. فقط الفراش في موضعه الذي نقلناه إليه...

كنا نلهث وفي حالة أقرب للجنون.. لكننا فهمنا..

هي حالة هلوسة بصرية وسمعية شنيعة أدخلنا فيها هذا البيت اللعين..

ولو كان شبح (شيراز) معنا في الحجرة فلابد أنه دامع العينين من فرط الضحك على حماقتنا واندفاعنا الهستيري من أجل سراب..

تبادلت النظرات و (مدحت)...

ثم بدأنا نردد عبارات السباب متوعدين الفتاة بالويل والثبور لو سقطت بين أيدينا.. سنكون أول بشريين ينجحان في قتل شبح...

* * *

وهنا سمعنا الأنين.. كان قادمًا من الطابق السفلي..

كأنه أنين امرأة حزينة فقدت أملها في شيء،.. ولم يكن في مقدورنا ألا نهرع نازلين الدرجات الخشبية متسائلين عما هنالك..

وهناك - عند ركن المدفأة - رأينا على ضوء النهار المتسرب من الخارج أشنع كابوس رأيناه في حياتنا..

(عبير) الناحلة الرقيقة مقيدة للجدار.. وعلى قدميها تلتف ثلاث أفاع شريرة المنظر لا توحي بالثقة..، وكانت البائسة - (عبير) طبعًا - عاجزة عن التملص أو الحراك أو حتى الصراخ بصوت عال حتى لا تثير حفيظة الزواحف الملتفة حولها.

- لعبة جديدة لعزيزتي (عبير)!

كذا دوى صوت (شيراز) الرقيق فالتفتنا إلى مصدره...

كانت واقفة في أعلى السلم بثوبها الأبيض الطويل وهي تضم إحدى يديها إلى الأخرى في شغف...

صاح (مدحت) في عصبية وهو يثب السلالم قاصدًا تهشيم رأسها:

- أيتها الحدأة!.. لقد ضقت ذرعًا!

في رقة وضعت إصبعًا على شفتيها محذرة:

- شش!.. إن هذه الأفاعي عصبية المزاج وشرسة جدًا.. وسامة!، فلا تجازف بأن تلدغ إحداها شقيقتك الرقيقة في ساقها.. لو كنت مكانك لبدأت التفكير في كيفية إبعاد الأفاعي دون إثارة حفيظتها..!

بدا كلامها مقنعًا لنا.. فعاد (مدحت) يهبط درجات السلم في حذر.. ووقف جواري شارد اللب..

هذه المرة لا أرى حلًا لهذه الورطة.. إلا أنني همست..

- بالتأكيد هي هلوسة كالمرة السابقة..؟

همس في عصبية وعيناه لا تفارقان المشهد:

- وماذا لو كان واقعًا؟!

- لا أدري.. في الحقيقة يبدو لي الأمر معقولًا وملموسًا إلى حد لا شك فيه...

- والعمل؟.. كانت الأفاعي تلتف في كسل وتراخ حول ساقي البائسة التي ماتت ذعرًا أو كادت.. شنيع هو الخوف الذي لا تملك حتى حق التعبير عنه..

وهنا خطرت لي فكرة..
انتزعت قطعة من قماش الستائر وأحرقتها بقداحتي ثم ألقيت بها مشتعلة على بعد متر من ساقي (عبير)..
- ماذا فعلت؟
- الحرارة.. المفروض أنها تجذب الأفاعي.. والمفروض أن جسد (عبير) بارد كالثلج من فعل الأدرينالين.. أعتقد أن الأفاعي ستفضل الذهاب لترى ما هنالك..
بالفعل.. بدأت الأفاعي تفك قيودها من حول ساقي الفتاة.. وتزحف ببطء وتؤدة تجاه المصدر الحراري الوحيد في المكان.. يجب أن نسرع بإنقاذها الآن، و...
فجأة...

اختفى كل شيء.. اختفت (عبير) والأفاعي و(شيراز).. لم يبق سوى قطعة من القماش المحترق ملقاة جوار المدفأة..

انها خدعة بصرية قاسية أخرى.. إن البيت لم يزل طفلًا يصبو إلى اللهو.. اللهو المؤذي المزعج الذي ينسف أعصابنا نسفًا...

❋ ❋ ❋

فجأة جذب (مدحت) ذراعي..

معًا سمعنا صوت باب ينفتح في بطء..

أجفلنا وتهيأنا لأسوأ النتائج.. إلا أن الباب انكشف عن وجهي (عبير) و (عماد) الشاحبين.. خيل لنا أننا لم نر قط وجهين أجمل من هذين..

- (مدحت).. (رفعت)!.. أنتما بخير!
وارتمت (عبير) في حضن أخيها على حين عانقني (عماد) كالملهوف وصرخ في هستيريا:
- سمعنا صراخكما فهرعنا ننقذكما.. فوجدنا...
قلت وأنا أشعل سيجارة:.
- نعم.. نعم.. وجدتمانا على شفا الموت..
- كيف عرفت؟.. كنت أنت ساقطًا على الأرض بين ذئاب شرسة تنهش جثتك..!
غريب هذا!.. تذكرت على الفور الكابوس الذي كان يزور هويدا ليلًا وظننته من تأثير عشاءها الدسم!.. إذن فتلك الحمقاء تملك - برغم كل شيء - بعض الشفافية..
- وكيف تصرفتما...؟

- أشعلنا مفرش المائدة لنفزعها إلا أن كل شيء تلاشى فجأة...

- هذا ما حدث لنا بالضبط.. وماذا عن (مدحت)؟

صاحت (عبير) في لهفة وبصوت كالعواء:

- كان مسخ رهيب يطارده.. واستطاع الظفر بهم ثم...

-.. تلاشى كل شيء..

هتف (مدحت) في غل:

- إن البيت اللعين يتسلى باللعب بأعصابنا.. وأقترح أن نغادره فورًا قبل أن نجن....

- لقد جعلتنا (شيراز) يرى بعضنا البعض في ورطات شنيعة.. كانت تتسلى بمشاهدة

ردود أفعالنا، إنها لم تفقد بعد روح الطفولة وإن شابتها نزعة سادية مذهلة..
تقدم (مدحت) إلى النافذة الموصدة وعاد يواصل ما كان بدأه من محاولة انتزاع المصراع.. وشرعت أزيد متاعبه متظاهرًا بالمعاونة..
حين دوت الصرخة..
لقد صار هذا مملًا.. سأشعر بالقلق لو مرت عشر دقائق في هذا البيت دونما صوت ما.. صراخ أو أنين أو باب ينغلق أو حبل يتمزق..
كانت قادمة من الطابق العلوي.. بالتحديد عند نهاية (درابزين) السلم..
كانت (إلهام) هناك تصرخ وتولول كقط داست قدمه سيارة.. وكان شيء ما يتقدم

نحوها.. شيء ضخم لم نستطع رؤية وجهه لكننا لم نرغب في ذلك قط.. فقد كان يمد يدين ضخمتين نحوها.. ويرتجف..

و ذعرها كانت تتراجع للخلف.. للخلف..

وفي الخلف كان (الدرابزين) المهشم منخفض الارتفاع ينتظر..

وهنا سمعنا صوت (شيراز) المخملي:

- والآن لعبة جديدة من ابتكاري.. إن المسخ يتقدم نحو (إلهام) وعليها أن تختار ما بين أنيابه أو السقوط من أعلى...

كانت واقفة هناك جوار المسخ بثوبها الابيض تبتسم وقد بدت كأنها مذيعة تقدم فقرة رياضية في برنامج منوعات مسل..

- لاحظوا أنكم لن تستطيعوا الصعود إليها لأن درجات السلم تهشمت...

وأشارت لما عنته.. كانت الدرجات التي صعدنا وهبطنا عليها مرارًا قد تلاشت تاركة مكانها فجوات سوداء رهيبة..

- أما عن محاولة التقاطها عند سقوطها فمشكوك فيها.. إنها بدينة جدًا وستفلت بالتأكيد من بين أصابعكم مالم تسقط فوقكم محيلة أجسادكم إلى سجادة!.. والآن دعوني أر ما ستفعلون.. إن (رفعت) العبقري سيجد حلًا بالتأكيد..!

كانت (إلهام) تصرخ.. تتراجع للخلف في هلع.. وتتوسل إلينا:

- (مدحت)!.. افعل شيئًا..!

هاهي ذي حبيبة طفولتنا البدينة توشك على أن تلقى حتفها ونحن عاجزون عن إيجاد حل مناسب... ولكن... لماذا نجد

حلًا؟.. إنه وهم جديد آخر من أوهامها التي لا تنتهي...

نظرت للآخرين فوجدتهم أقل توترًا من أي وقت مضى.. لن تخدعنا هذه اللعينة مرة أخري - (شيراز) وليست (إلهام) طبعًا - إننا سنترك هذا البيت مهما حاولت استبقاءنا..

- (رفعت)!.. أرجوك!.. طفلاي!

ضحكت (شيراز) في تشف:

- هكذا يا (إلهام).. لا أحد يرغب في مجرد المحاولة!

أشعلت سيجارة أخرى.. وشرعت أفكر على صوت الصراخ القادم من أعلى.. النار والثعابين.. الذئاب.. كانت كل هذه أوهامًا.. لكن الأوهام التي اشتعلت فيها

النار تلاشت فجأة.. النار تبدد الأوهام.. وهاهي ذي سيجارتي مشتعلة، و.....

(إلهام) هي التي وشت بنا لدى خالي وجعلته يجبرنا على أن نقسم وبهذا انتهت علاقتنا بالبيت.. (إلهام) مزقتها الغيرة فاندفعت تمزق عرى الصداقة البريئة الوحيدة في حياة (شيراز) أو مماتها..

(شيراز) عادت وحيدة دون أصحاب سنوات لا أعرف عددها.. وإذن فهي تملك كل الأسباب كي تمقت (إلهام)...

*** * ***

"أنتم جميعًا هنا من أجلها.. لا أحد يريدني.. ولا أحد يعبأ بي! "

"مشكلتي هي أن (شيراز) لا تجد أصدقاء من سنها.. ما أسماؤكم يا أحبابي؟"

* * *

(إلهام) تتقدم نحو الحافة..
اللامبالاة على وجوه الأشقاء الثلاث..
وهنا فهمت..
وفي هلع صحت وأنا أثب نحو المكان الذي ستسقط عنده:
- إن هذا ليس وهمًا!.. هذه هي (إلهام) حقًا.. وكل ما يحدث حقيقي.. لقد بددت النار كل الخيالات السابقة لكنني أشعلت سيجارتي وظلت الصورة مستمرة!
- ولكن....
- أسرعوووا...!

وقبل أن نتفق على شيء وقفنا جميعًا أسفل المكان الذي تقف عنده.. ومددنا أيدينا لأعلى في محاولة لا معنى لها لعمل شيء ما...

وهنا تهشم السياج الذي كانت تستند إليه (إلهام)..

ولمحنا جسدها البدين يهوي فوق رؤوسنا كنيزك عملاق..

❋ ❋ ❋

١٠ - (شيراز) تتكلم..

توقعنا الكارثة لكنها لم تحدث..

وحين رفعنا رؤوسنا - في حذر - إلى أعلى وجدنا أن الحظ لم يتخل عنا بعد...

لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم في ثوب (إلهام) فتدلت - كالثريا - من أسفل (الدرابزين) فوق رؤوسنا.. كانت تصرخ وتولول لكنها ظلت حية على الأقل.. وقد صارت على ارتفاع ثلاثة أمتار فحسب عوضًا عن ثمانية!..

الحمد لله العلي القدير..

- (رفعت)!.. إنني سأ... أسقط..

كان طرف الثوب يتمزق - أو لعله الخشب - ببطء شديد.. سمعنا صوته وكنا

على استعداد هذه المرة لنتلقاها بين أذرعنا الممدودة.. صحيح أن محاولتنا قد ألغت نهائيًا آثار السقطة المدمرة لكنها كادت تمزق عضلاتنا.. وسقطنا على الأرض جميعًا شبه مهشمين..

وإنني لأتساءل عن كيف يكون الأمر لو أنها سقطت من الارتفاع السابق فوق رؤوسنا؟..



لقد اشتبك جزء من الخشب المهشم فى ثوب (إلهام) فتدلّت ،
كالثريا ، من أسفل (الدرابزين) فوق رءوسنا ..

نظرنا فوجدنا المسخ و (شيراز) ينظران لنا من أعلى..

صرخ (مدحت) من حيث ارتمى على خشب الأرضية ملوحًا بقبضته:

- صبرًا أيتها الشيطانة!.. لو وقعت في يدي!

لم ترد (شيراز) بل استدارت مع المسخ ببطء.. واختفت في الظلام...

صاح (عماد) في حنق:

- (رفعت)!.. ارفع كعب حذائك عن عنقي..!..

- ليس قبل أن تخرج كوعك من معدتي..

ووجدت ذراعًا مشعرة تلتف حول ساقي.. فصحت في حنق أشد:

- ذراع من هذه؟ فليبعدها صاحبها عني....!.
- أعتقد أنها ذراعي أنا.. كنت أظن الساق ساقي!
الخلاصة أننا استغرقنا بعض الوقت حتى نفهم حقيقة وضعنا وكينونتنا.. وحتى ننهض على أقدامنا..
وحين وقفنا أخيرًا - لاهثين مغبرين - كنا قد أدركنا ما حدث.. حقًا كانت (شيراز) تحبنا..
وحقًا كانت بحاجة إلينا..
لهذا - وحين تسببت (إلهام) في انقطاعنا عن المجيء - قاست (شيراز) سنوات مريرة من الوحدة.. شنيعة حقًا هي وحدة

الأشباح بعيدًا عن كل ما يربطهم بعالم الأحياء..

ولظروف لا نفهمها بدأت (شيراز) تتحول إلى مسخ..

من ثم صممت على الانتقام ممن كانت سبب عذابها وحرمانها من الصحبة الآدمية، وكان هذا الانتقام المروع من (إلهام) يتلخص في جعلها تلقى نهايتها المفزعة أمام عيون أصدقائها الذين لن يحركوا ساكنًا!..

سيظنون كل هذا وهمًا آخر بعد أن اعتادوا الأوهام المماثلة

أي تفكير مروع!.. وأية قسوة..!

المشكلة الآن هي ماذا عسانا فاعلون بعد ذلك؟..

من الواضح أنها تملك إيذاءنا في أي وقت تشاء..

وحتى لو هربنا - وهذا ليس صعبًا - فمن يضمن لنا أن (إلهام) لن تواجه كارثة أخرى؟.. ربما في صالون دارها أو الحمام أو حتى في الطريق العام...

ثم - الأدهى - من أدراني أنها لن تضعني في قائمتها السوداء بعد ما أحبطت لعبتها الجهنمية؟.. إن هذا منطقي وسأندهش لو لم تفعل..

مشكلة الأشباح هي أن التنبؤ بما ينوون عمله مستحيل..

- أعتقد أن الوقت لا يسمح سوى بمغادرة البيت..

- والقفز من على السور الحديدي المرتفع؟

- لن يكون هذا عائقا كبيرًا.. سنجد حلًا وقتها..

وعدنا للمرة الثالثة نحاول تهشيم مصراع النافذة.. تشبث جيدًا!.. هيه!.. إنه يلين.. استمر يا (رفعت).. هيه!... هان!.. هاهو ذا..!. كراشي!!.. تهشم الخشب واستطعنا أخيرًا أن نرى نور النهار ونباتات الحديقة المحتضرة.. ولكن وأسفاه!.. ثمة ثلاثة قضبان غليظة تقف حائلًا بيننا وبين الخروج.. نسينا تمامًا أمر هذه القضبان...

صاح (مدحت) في هستيريا:

- لم ننته بعد.. سنهشم الباب الخارجي.. إنه ثقيل لكننا خمسة ويمكننا استخدام قطع

الأثاث لذلك...

نظرت إلى (إلهام) الدامعة وقد تشوشت ثيابها واختلطت خصلات شعرها بالغبار والعرق.. كانت ذاهلة تمامًا.. فقلت في تؤدة:

- نحن أربعة فقط..!.. لا تنس ذلك...

وتعاوننا نحن الأربعة على حمل مائدة الطعام العملاقة.. كان ظهري يوشك على أن ينشطر شطرين.. و عروق عنقي تنفجر.. لكني تماسكت..

هيا بنا..!... معًا نركض - قدر الإمكان - نحو الباب الضخم.. و.. هوب!.. كانت الصدمة ضعيفة لكنها خلخلت أجسادنا وسقطنا جميعًا على الأرض.. أما الباب فلم يبد أدنى استجابة!..

- لا جدوى.. سنتحول إلى فتات قبل أن يتزحزح هذا الباب!

هتف (عماد) في جنون:

- إذن سنظل هنا حتى نموت جوعًا!.

غمغمت في ضيق محاولًا أن أمنع نفسي من ضربه:

- لم أعد أعرف ما إذا كنا سنظل هنا أم لا.. كل ما أرجوه هو أن تطبق فاك وتحتفظ بآرائك لنفسك!

- حسن.. لا داعي لأن نفقد أعصابنا.. إن عائلاتنا لن تلبث أن تلحق بنا...

وعدنا نفكر في همّ عن السبيل الأمثل للخروج من هذا المأزق..، وما لبث (مدحت) أن هتف وقد ثارت حماسته:

- لا بد أن مفاتيح هذا الباب في مكان ما.. ثم إننا لم نحاول الصعود لسطح البيت فلربما تمكنا من طلب الغوث...

- سيظنوننا أشباحًا ويبتعدون مذعورين.. لكن الأمر جدير بالمحاولة..

ثم إنني تذكرت شيئًا.. الدرجات!.. لقد حطمتها (شيراز) كي تمنعنا من الصعود لإنقاذ (إلهام).. فكيف نصعد إذن؟..

وهنا سمعنا ضحكة (شيراز) الرقيقة...

رأيناها واقفة على (الدرابزين) في الطابق العلوي حيث كانت (إلهام) منذ دقائق.. وسمعناها تقول مبتسمة:

- مأزق شنيع.. أليس كذلك؟.. إن البيت حصين أكثر مما يبدو في الواقع!

ومدت إصبعها السبابة والإبهام للأمام وفرقعت بهما:
- ما هو الحل؟.. لا حل**!**.. ستحاولون كثيرًا وقليلًا لكنكم ستعرفون ألا حل هنالك.. العبوا**!**.. العبوا.. فهذا يسليني**!**
تقدمت في تؤدة إلى أسفل المكان الذي وقفت فيه.. ورفعت رأسي صائحًا..
- تغيرت كثيرًا يا (شيراز)..
- ومن لم يتغير؟
- كنا نحبك حقًا..
- وبرغم هذا تخليتم عنى..
- كنا مجبرين.. أقسم لك على هذا.. كنا أطفالًا لا نملك خياراتنا..
أشارت نحو (إلهام) في كبرياء حانق.. وهتفت:

- على الأقل كانت هذه الشيطانة تملك الخيار.. وقد اختارت.. اختارت الشر والحقد.. ولهذا تحتم الانتقام...

- كانت غيرة أطفال..

- النتيجة واحدة.. وهي أنني - أنا الطفلة البريئة الصغيرة - أجبرت على أن أقاسي الوحدة.. وحدة الأشباح المريرة.. الكل يخافون مني.. الكل يتحاشونني كالوباء..، وبدأ الشر يتبلور في أعماقي ويطفح على وجهي.. أنتم لم تروا وجهي بعد.. لكنكم سترون ما وصل إليه...

- أتأخذيننا جميعًا بجريرتها؟!

- إنكم أنقذتموها بكامل إرادتكم.. من ثم استحققتم مصيرها..

تقدمت (عبير) لتقف جواري.. وصاحت محدثة (شيراز):

- (شيراز)!.. نحن مستعدون لأن نعود أصدقاءك وأن نحبك كما كان في الماضي....

ضحكت (شيراز) في سخرية.. أقسى ضحكة سمعتها في حياتي:

- لن يعود الزمان كما كان أبدًا.. أمس كنتم تحبونني بنزق وبراءة الطفولة ولم تكونوا مضطرين.. أما اليوم فأنتم تخشونني.. وتحملون تراث البالغين الفاسد، ثم تقولون لي: لنعد كما كنا... مستحيل يا صغيرتي...

تقدم (مدحت) إلى الأمام جوارنا.. (كأنها مسرحية سخيفة تقدمها إحدى فرق الأقاليم

المسرحية حين يتقدم كل ممثل إلى مقدمة المسرح ليقول عبارة ما):

- أيتها الحمقاء!.. لن يلبث ذوونا أن يبحثوا عنا وهم يعرفون أين يجدوننا.. إن زوج (عبير) لعلى استعداد لأن ينسف الباب نسفًا بعد ساعة من الآن...

- ساعة من الآن؟

دوي صوت (شيراز) البارد القاسي.. وبتؤدة أردفت..

- من قال إنني سأنتظر ساعة كاملة؟!.. إن المرح سيبدأ الآن حالًا!

....

* * *

في اللحظات التي سبقت ما حدث بعد ذلك كان عقلي يعمل بسرعة جنونية..

الأسرة مات جميع أفرادها – بما فيهم الخدم - في أوائل هذا القرن.. فكيف ماتوا؟ ولماذا عادوا للظهور بعدها؟.. الفتاة في حاجة لأصدقاء.. وهي تعاني حرمان السنين..، لكن لماذا هذه الأيام بالذات؟.. ولماذا قررت أن تتحول إلى مسخ؟.. لماذا انتظرت حتى دنونا من سن الكهولة لتطاردنا..؟.. ثم - السؤال الأهم - أين ذهب باقي أفراد الأسرة؟.. أين الأم والخادم؟.. إن نجاتنا تكمن في الإجابة على هذه الأسئلة..

أشعر بذلك بكل جوارحي..

وهنا صرخت (عبير) في هلع كأنها ترى الشيطان:

- انظروا!...

نظرنا - بالطبع - إلى حيث أشارت فرأينا..

رأينا عيونًا حمراء تلتمع في الظلام وسمعنا فحيحًا..

ولمحنا في ضوء النهار المتسرب من النافذة المحطمة أشخاصًا يتقدمون نحونا ومن الواضح أنهم يريدون شرًا...

- أعوذ بالله!

كذا صاح أحدنا - ربما أنا - وهو يلتصق بالآخرين محمومًا..، خمسة أطفال يرتجفون وهم يرون غيلانًا تحاصرهم...

آه لو كان مسدسي معي!..

لن يجدي شيئًا مع هذه المسوخ لكنه - على الأقل - سيجعل نهايتنا مشرفة..
تحسست جيبي بيدي.. و.. غريب هذا!.. إنه في جيبي.. ما هذا العبث؟ ومن الذي...؟..

صحت في الآخرين وقد بدأت أفهم ما حدث:

- لحظة يا شباب!.. إن كل هذا ليس حقيقيًا!.

نظر لي (مدحت) في حيرة:

- تعني.. مثل الأوهام السابقة التي رأيناها؟

- بل الأمر وهم في وهم.. الأمر كله هلوسة جماعية نعيشها الآن!..

إن البيت بالفعل مسكون.. مسكون بطاقة هائلة تجعله يعابثنا...

- و (شيراز)؟.. وانتقامها؟

- أعتقد أن (شيراز) وأمها والخادم.. وكل شيء رأيناه وهم لا وجود له إلا في عقولنا...

صاح (عماد) ولسان حاله يقول إنني جننت أخيرًا:

- وهذه الأشياء التي تهاجمنا الآن؟

صرخت بأعلى صوتي محاولًا تحريك هؤلاء الحمقى:

- تماسكوا.. فكروا في لحظاتكم السعيدة وفي عائلاتكم.. انسوا الفزع.. ولا يفكرن أحدكم إلا في أصدقائه الآخرين وذكرياتنا المشتركة الحميمة.. تماسكوا!...

ليمسك كل منكم يد الآخر.. ولا يدع البيت يهزمه..

كان زئير الأشباح يتعالى وهى تقترب.. نكاد نشم رائحة أنفاسها.. العرق يسيل على جباهنا وأيدينا تنزلق.. لكننا نتماسك..، (عبير) تبكي.. و(عماد) يرتجف كالورقة.. منظاري تتدحرج على أنفي لكنني لا أجرؤ على رفعه حتى لا أترك يد (مدحت).. ويد (إلهام)..

- رائع يا رفاق!.. استمروا..!.. هأنتم ترون أن الأشباح لم تستطع عمل شيء.. إن الوهم لا يؤذي..

مرت دقائق عسيرة..

وفجأة ساد الهدوء.. فتحنا عيوننا ببطء لنجد مدخل البيت والمائدة وكل شيء لكن

لا أشباح.. ولم تعد (شيراز) واقفة على (درابزين) السلم..

- الآن فكوا أيديكم!

وأشعلت سيجارة على حين استرخى الآخرون على الأرض من حولي غير عابئين بالغبار.. كان الفضول يعتصرهم ليفهموا ما حدث..

- والآن.. هلا فسرت لنا؟

افترشت الأرض جوارهم ونفثت حلقة من التبغ..

- قبل أن أتكلم.. هلا نظرتم إلى الباب وأخبرتموني هل هو مفتوح أم مغلق.؟ وهل درجات السلم مهشمة؟

- هو مفتوح..! ودرجات السلم سليمة تمامًا...

- كما تركناها؟
- كما تركناها...
- إذن أصغوا لما سأقول...

❋ ❋ ❋

١١ - الخاتمة..

في دار (مدحت) جلسنا نرشف الشاي ونتناول طعام الإفطار، على حين أخذت زوجته تداعب (إلهام) وتسري عنها..

قلت لهم مفسرًا ما كان مني في البيت؛ إنني بدأت أعتقد أن الأمر كله وهم منذ وجدت المسدس في جيبي برغم أنني لم أجده لحظة الدخول.. فسألت نفسي: أمن الممكن أن يكون المسدس في جيبي طيلة الوقت.. وأنني لم أجده لأنني (توقعت ذلك)؟.. بمعنى آخر.. هناك قوة ما جعلتني أتخيل اختفاء المسدس برغم أنه كان معي من البداية...

ثم سألت نفسي.. ما سر عودة (شيراز) لمطاردتنا بعد كل هذه الأعوام؟..

لماذا نسيتنا ثلاثين عامًا ثم عادت تذكرنا؟.. إن الأمر يبدو متناقضًا حتى بمنطق الأشباح.. هل حقًا رأينا شبح (شيراز) وأمها أم أننا تخيلنا ذلك؟..

ثم - بمنطق البشر والأشباح - هل خطأ (إلهام) القديم يستحق كل هذا العقاب؟.. لا أظن..

إذن قصة الشبح الطفل المحروم من الصحبة الآدمية لا تروق لي كثيرًا ولا أعتقد أنها تبرر كل ما حدث...

إذن.. لماذا لا تكون (شيراز) وأمها وغرام الطفولة و.. و.. كلها خيالات؟.. مجرد أوهام عشناها بكل تفاصيلها حين

أجبرنا الفضول على دخول هذا البيت؟... من يدري؟... لربما كان عددنا خمسة لا ستة كما ظننا.. ولربما كنا نلعب المساكة ونثرثر ونتشاجر من أجل لا شيء.. ومع لا أحد..

لقد صدقت (عبير) حين قالت: إن البيت حي...

هذا أمر لا شك فيه.. وهو المبرر الوحيد لكل ما رأيناه.. كان البيت يحوي طاقة نفسية هائلة قادرة على خلق مئات الرؤى لنراها جميعًا في نفس الوقت..، والحقيقة التي غابت عنا هي أن الباب ظل مفتوحًا ولم ينغلق.. لكننا جميعًا حسبنا أنفسنا سجناء..

البيت جعل أطفالنا يرون (شيراز) وجعلنا نحن أيضًا نراها في ديارنا...

لكن (شيراز) لم توجد.. أو - على الأقل - لم تصر شيئًا...

وأعتقد كذلك أن البيت هو المسئول الأول عن مقتل الأسرة التي كانت تسكنه قديمًا.. فلربما أغرقهم في وهم ما، لم يفيقوا منه قط.. نحن جميعًا قاسينا الهلاوس البصرية والسمعية وعرفنا كيف تبدو حقيقية..

(إلهام) قذفت نفسها من فوق الدرابزين لمجرد رؤيتها مسخًا وهميًا.. ونحن حطمنا ظهورنا محاولين اقتحام باب مفتوح من البداية.. وقضينا أسود ساعات حياتنا في خيالات لا طائل منها...

لقد نال البيت منا... فهو بعد كل هذه الأعوام لم يزل طفلًا يعشق اللهو ويهوى أن يتلاعب بالآخرين..

سألني (مدحت) وهو ينتزع لفافة تبغ من علبتي..

- وما سر هذه الطاقة الهائلة الكامنة فيه؟

- لا أدري.. لكن هذه الأشياء تحدث.. وغالبًا ما يتضح أنه مبني فوق مقابر قديمة اختلطت أساساته بعظام سكانها أو شيء من هذا القبيل...

- يصعب التأكد من هذه النقطة...

- السؤال الأهم هنا هو: لماذا أراد البيت أن نعود له؟.. لا أعتقد أنه اشتاق للعبث.. أعتقد أنه أراد أن يقدم لنا الحل لخلاصه..

إن البيت يريد أن يفنى ونحن فقط نعرف كيف....

- النار؟..

ابتسمت في ود وأشعلت قداحتي:

- بالفعل.. النار.. لقد ذابت كل الأوهام بمجرد أن ظهرت النار...

وهذه هي الرسالة التي أراد البيت أن يوصلها لنا حين أغرانا بدخوله.. وحتى لو كان اعتقادنا خاطئًا فإنني أعتقد أن هذا البيت المشئوم يجب أن يباد تمامًا.. من أجلنا ومن أجل أطفال صغار سيدخلونه في جيل قادم ليلعبوا مع (شيراز) أو واحدة أخرى...

تفكر (مدحت) في كلماتي برهة.. ثم قرب فمه من أذني وهمس:

- - ليكن... ولكن متى؟

* * *

بعد هذا بيومين أتت النيران على البيت تمامًا...

يقول رجال المطافئ إن هذا تم بفعل فاعل تسلل ليلًا وسكب جالونات عديدة من (الكيروسين).. ويقول عابر سبيل إنه شاهد ثلاثة رجال أحدهم نحيل أصلع واثنان متشابهان كالتوائم.. شاهدهم يفتحون البوابة ليلة الحادث...

لكن - والحق يقال - لم يشعر واحد من أهل (المنصورة) بالحسرة على احتراق هذا البيت الذي يخشاه الجميع..

حتى مالك البيت - الوريث - وجد أخيرًا الفرصة لبيع الأرض بعد أن يئس تمامًا من العثور على مشتر لهذا البيت...

فقط يقول الجيران إنهم سمعوا صوتًا غريبًا كأنه عملاق يئن بينما ألسنة اللهب تتصاعد من البيت المهجور...

لكنهم لم يعلقوا أهمية على هذا...

بعد هذا بيومين ودعت الأصدقاء لأعود إلى القاهرة..

سألني (مدحت) في قلق:

- هل تظن أن النار كافية..؟

بخبث ابتسمت:

- من يدري؟... على كل حال إذا لم تكن كافية سنعرف ذلك في القريب العاجل.. وليكونن انتقام البيت رهيبًا!

- إذن.. فلترحل قبل أن أهشم وجهك!

وهكذا...

عدت للقاهرة.. عدت بقصة غامضة أخرى أدونها في كراسة مذكراتي وأحكيها لـ (هويدا) في ليلة صيف ساحرة..

لكن الرعب هو قدري.. وحياتي لا تستقيم بهذه السهولة كما لابد أنكم قد تعودتم...

كان اللهب ينتظرني.. ويناديني.. وكان محتمًا أن ألبي نداءه عالمًا أنها قد تكون المرة الأخيرة..

ولكن هذه قصة أخرى..

د. رفعت إسماعيل

القاهرة ١٩٩٣

[تمت بحمد الله]

رقم
الإيداع:
١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية

القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات
مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايـات تحبس الأنفـاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة البيت

البـيت يعـرف كل شيء ..
البـيت يذكـر كل شيء ..
البـيت لم ينس وجوهنا الطفلة ..
و يدرك أننا سنعـود لا مـحـالة ..
البيت ينتظرنا بعد كل هذه الأعـوام ..
و بوابتـه الصدئة مفتوحـة من أجلنا
.... فـهل ندخل؟ .....





د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم : أسطورة اللهب الأزرق

ص

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي
في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ – ٢٨٣٥٥٥٤ – ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢